إنّ قوم موسى عليه السّلام حينما تبيّنوا تعاليم التّوراة الشّاقّة قالوا له : سمعنا قولك وعصينا أمرك ، وحينما رفع جلّ وعلا جبل الطّور فوقهم كأنّه ظلّةٌ من الغمام تمسكها القدرة الإلهية ، وأيقنوا أنّه واقعٌ بهم وساقطٌ عليهم ، وقيل لهم خذوا ما آتيناكم فى التّوراة بقوّة واعملوا بما أعطيناكم فى التّوراة بجدٍّ واجتهاد ، واذكروا ما فيه والتزموا بتعاليم الكتاب السّماوىّ لعلكم تتّقون ، قالوا آنذاك : سمعنا وأطعنا. وحينما أيقنوا أنّ الجبل ساقطٌ عليهم خرّ كلّ رجل ساجداً على حاجبه الأيسر ونظر بعينه اليُمنى إلى الجبل فَرَقًا مِنْ أن يسقط عليه[١] .

وبشأن دخول باب القرية سجّدًا جاء هنا القول : ﴿ وقلنا لهم ادخلوا الباب سجّدا ﴾ وجاء فى سورة البقرة[٢] القول ﴿ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجّدًا وقولوا حطّةٌ نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين . فبدّل الّذين ظلموا قولاً غير الّذى قيل لهم فأنزلنا على الّذين ظلموا رجزاً من السّماء بما كانوا يفسقون ﴾ وجاء فى سورة الأعراف[٣] القول : ﴿ وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطّةٌ وادخلوا الباب سجّداً نغفر لكم خطيئاتكم . سنزيد المحسنين . فبدّل الّذين ظلموا منهم قولاً غير الّذى قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً ممن السّماء بما كانوا يظلمون ﴾ وقد أشارت سورة المائدة[٤] إلى الحوار الّذى تمّ بين موسى عليه السّلام وبين قومه الّذين رفضوا بقلّة أدب أمره لهم عليه السّلام أن يدخلوا الأرض المقدّسة بمعنى القرية المقدّسة ، فكتب اللّه تعالى عليهم التّيه فى شبه جزيرة سيناء أربعين سنة دخلوا بعدها الأرض المقدّسة أو القرية المقدّسة بقيادة يوشع بن نون عليه السّلام ، وكان كلٌّ من هارون وموسى عليهما السّلام قد لحقا بالرّفيق الأعلى على التّوالى فى التّيه . قال تعالى ﴿وإذ قال موسى لقومه

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٦١ ، وانظر البحر المحيط ١/٣٠٨ .

(٢) الآيتان : ٥٨ ، ٥٩ . (٣) الآيتان : ١٦١ ، ١٦٢ .

(٤) الآيات : ٢٠ - ٢٦ .

يا قوم اذكروا نعمة اللّه عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدّسة الّتى كتب اللّه لكم ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى إنّ فيها قوماً جبّارين وإنّا لن ندخلها حتّى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنّا داخلون . قال رجلان من الّذين يخافون أنعم اللّه عليهما ادخُلُوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . وعلى اللّه فتوكّلوا إنّ كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى إنّا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون . قال ربّ إنّى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنّها محرّمةٌ عليهم . أربعين سنةً يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ .

ومن البيّن أنّ آية سورة النّساء تشير بإيجاز إلى عمليّة الدّخول وتريد التّنبيه إلى المخالفة القوليّة والفعليّة من بنى إسرائيل وذلك فى القول : ﴿ وقلنا لهم ادخلوا الباب سجّدًا ﴾ قيل لبنى إسرائيل : قولوا حطّةٌ ، على إضمار مبتدأ ، أى مسألتنا حطّة[١] والباب الّذى أمروا بدخوله هو بابٌ فى بيت المقدس يُعْرَف اليوم بباب حطّة ، عن مجاهد وغيره[٢] روى مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ص: قيل لبنى إسرائيل ادخلوا الباب سجّداً وقولوا حطّة يغفر لكم خطاياكم فبدّلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وقالوا حبّة فى شَعْرة . وأخرجه البخارىّ ، وقال : فبدّلوا وقالوا حطّةٌ حبّةٌ فى شَعْرة. فى غير الصّحيحين : حنطةٌ فى شَعْر[٣].

وبشأن الاعتداء فى يوم السّبت جاء هنا القول : ﴿ وقلنا لهم لا تعدوا فى السّبت﴾ وجاء فى سورة البقرة[٤] القول : ﴿ ولقد علمتم الّذين اعتدوا منكم فى السّبت فقلنا لهم كونوا قردةً خاسئين . فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظةً للمتّقين﴾ وجاء فى سورة الأعراف [٥] القول : ﴿ واسألهم

(١) تفسير القرطبى ٣٥٠ .
(٢) تفسير القرطبى ٣٥٠ .
(٣) تفسير القرطبى ٣٥٠ .
(٤) الآيتان : ٦٥ - ٦٦ .
(٥) الآيات : ١٦٣ - ١٦٦ .

عن القرية الّتى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السّبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم . كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون . وإذ قالت أمّةٌ منهم لمَ تعظون قومًا اللّه مهلكهم أو معذّبهم عذاباً شديدًا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلّهم يتّقون . فلمّا نسوا ما ذُكّروا به أنجينا الّذين يَنْهَوْن عن السّوء وأخذنا الّذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون . فلمّا عَتَوْا عمّا نُهُوا عنه قلنا لهم كونوا قردةً خاسئين ﴾ .

ومن البيّن أنّ آية سورة النّساء تشير بإيجاز إلى عمليّة الاعتداء يوم السّبت المخصّص لعبادة اللّه تعالى بالاحتيال لحبس السّمك ذلك اليوم واصطياده بعد ذلك . إنّ سكّان قرية أيْلة بين مَدْين والطّور[١] على شاطئ بحر القُلْزُم[٢] المعروف حاليًا بالبحر الأحمر ، ابتلاهم اللّه تعالى بأن أرسل عليهم يوم السّبت الحيتان رافعةً رءوسها[٣] متحرّشةً بهم ، وظاهرةً على الماء[٤] وفى غير يوم السّبت لا تأتيهم ولا تدنو من شواطئهم ، فحفروا حياضاً عند البحر وشرعوا إليها الجداول فكانت الحيتان تدخلها فيصطادونها يوم الأحد ، فذلك الحبس فى الحياض هو اعتداؤهم[٥] ثمّ صادوها علانية وباعوها فى الأسواق ، وأصرّ الظّالمون على ظلمهم فمسخهم اللّه تعالى قردةً . وجمهور المفسّرين على أنّ الّذين مسخهم اللّه لم يأكلوا ولم يشربوا ولَمْ يَنْسُلوا بل ماتوا جميعاً وأنّهم لم يعيشوا أكثر من ثلاثة أيام[٦] .

وتختم الآية الكريمة بالقول : ﴿ وأخذنا منهم ميثاقا غليظاً ﴾ إنّ الميثاق

---

(١) تفسير الطبرى ٩/ ٦٢ .

(٢) البحر المحيط ١/ ٢٤٦، ومعجم البلدان، وتفسير الطبرى ١/ ٢٦٢ وتفسير ابن كثير ١/ ١٠٥.

(٣) معجم مقاييس اللّغة لابن فارس (شرع) ٣/ ٢٦٣ .

(٤) تفسير الطبرى ١/ ٢٦١ .

(٥) انظر الكشاف ١/ ٢١٩ وتفسير ابن كثير ١/ ١٠٥ ، ١٠٦ وتفسير الطبرى ١/ ٢٦٢ .

(٦) البحر المحيط ١/ ٢٤٦ وانظر تفسير الطبرى ١/ ٢٦١ وتفسير ابن كثير ١/ ١٠٥ .

هو العقد المؤكّد بيمين وعهد[١] والغِلظة ضدّ الرّقّة ، وأصله أن يستعمل فى الأجسام لكن قد يستعار للمعانى كالكبير والكثير[٢] وإذا كانت لفظة ميثاق ذاتها تشير إلى قوّة العهد ومتانة العقد فإنّ الصّفة « غليظاً » تشير إلى ضخامة هذا الموثق حجمًا وبذلك يزداد قوّةً إلى قوّته ومتانةً إلى متانته . إنّ اللّه سبحانه وتعالى قد أخذ على قوم موسى الميثاق الغليظ بأن يعملوا بتعاليم التّوراة ولكنّ طبيعة القوم أن ينقضوا كلّ ميثاق وإلى ذلك النّقض والأمثلة الأخرى عليه أشارت الآية الكريمة التّالية فإلى:

الآية رقم (١٥٥)

قال تعالى :

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾

الآية الكريمة تذكّرنا بمثل قوله تعالى في سورة المائدة[٣] : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم ﴾ وقوله تعالى فى سورة آل عمران[٤] : ﴿ ضُرِبت عليهم الذّلّة أينما ثقفوا إلاّ بحبلٍ من اللّه وحبلٍ من النّاس وباءوا بغضب من اللّه وضُرِبتْ عليهم المسكنة . ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات اللّه ويقتلون الأنبياء بغير حق. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ وقوله تعالى فى سورة البقرة[٥] : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعامٍ واحدٍ فادع لنا ربّك يُخْرِجْ لنا ممّا تُنْبِت الأرض من بقلها وقثّائها وفومها وعدسها وبصلها . قال أتستبدلون الّذى هو أدنى بالّذى هو

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : « وثق » ٥١٢ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : « غلظ » ٣٦٤ .
(٣) الآية : ١٣ . (٤) الآية : ١١٢ .
(٥) الآية : ٦١ .

خير . اهبطوا مصراً فإنّ لكم ما سألتم . وضُربت عليهم الذلّة والمسكنة وباءوا بغضب من اللّه . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات اللّه ويقتلون النّبيّين بغير الحقّ ذلك بما عصَوْا وكانوا يعتدون﴾ .

وإنّه بالنّظر إلى آيتى البقرة وآل عمران يتبيّن أنّه كان ثمّة من بنى إسرائيل عصيانٌ فكفرٌ بآيات اللّه تعالى فضرب الذلّة والمسكنة عليهم . وأنّه كان ثمّة اعتداءٌ على حرمات اللّه تعالى فقتلٌ لأنبياء اللّه تعالى فغضبٌ من اللّه تعالى عليهم .

ومن البيّن أنّا نستطيع أن ننظر إلى الآية الكريمة من سورة النّساء فى ضوء الآيات الكريمات من سورة البقرة وآل عمران والمائدة من زاوية نقض الميثاق والكفر بآيات اللّه تعالى وقتل الأنبياء بغير حقّ ، كما أنّا نستطيع أن ننظر إلى القول فى الآية الكريمة عن بنى إسرائيل : « وقولهم قلوبنا غلف » فى ضوء قوله تعالى فى سورة البقرة[1] : ﴿ وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم اللّه بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون . ولمّا جاءهم كتابٌ من عند اللّه مصدّقٌ لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الّذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به . فلعنة اللّه على الكافرين ﴾ .

وبناءً على ما سبق نستطيع أن نذهب إلى أن المحذوف بشأن كلٌّ من نقض الميثاق وقولهم قلوبنا غلف هو جملة لعنّاهم، وبشأن « وكفرهم بآيات اللّه » ضرب الذلّة والمسكنة عليهم ، وبشأن : « وقتلهم الأنبياء بغير حقّ » رجوعهم بغضب من اللّه تعالى واستحقاقهم لذلك الغضب . كما نستطيع أن نذهب إلى أنّ المحذوف بشأن كلّ هذه الصّفات السّيّئة لعنة اللّه تعالى على بنى إسرائيل بمعنى طرد اللّه جلّ وعلا لهم من رحمته . ومن البيّن أن اللّعن يتّسع معناه كى يشمل كلّ ألوان العذاب الّتى كانت من نصيب كافرى بنى إسرائيل .

ومعنى نقض الميثاق نقض العهد المؤكّد بالتّمسّك بتعاليم التّوراة ، وهذا

(٤) الآيتان : ٨٨ ، ٨٩ .

النّقض يصحّ أن يكون فى عهد موسى عليه السّلام ، ويتأكّد فى الفترات التّالية. ومعنى كفرهم بآيات اللّه تعالى ، كفرهم بكلّ ما آتى اللّه موسى عليه السّلام من آيات بيّنات وفى مقدّمتها التّوراة ، فثمّة التقاءٌ فى بعض الجوانب بين نقض الميثاق والكفر بآيات اللّه تعالى ، ويتأكّد الكفر كما تأكّد النّقض بعد عهد موسى عليه السّلام . ومعنى قتلهم الأنبياء بغير حقّ أنّ بنى إسرائيل لو سئلوا عن الأسباب الموجبة لقتلهم الأنبياء لما ذكروا أىّ سبب ولاعترفوا أنّ قتلهم لهم كان بغير حقّ . وإنّما كان قتل بنى إسرائيل النّبيّين بغير حقّ فى العهود التّالية لموسى عليه السّلام ، والمعروف أنّهم حرصوا على قتل كلٍّ من عيسى عليه السّلام الّذى رفعه اللّه تعالى إليه ، ومحمّد ﷺ الّذى عصمه اللّه تعالى من النّاس . ومعني القول « وقولهم قلوبنا غلف » أنّ قلوب بنى إسرائيل الّذين دعاهم محمّد بن عبد اللّه ﷺ إلى الإسلام كانت حسب زعمهم «عليها غشارة وأغطية عمّا تدعونا إليه فلا نفقه ما تقول ولا نعقله »[١] والغُلْف جمع أغلف وهو الّذى فى غلاف وغطاء[٢] كقولهم سيفٌ أغلف أى هو فى غلاف ويكون ذلك كقوله : وقالوا قلوبنا فى أكنّةٍ ممّا تدعونا إليه[٣] .

وهكذا يتبيّن أنّ هذه الآية الكريمة تغطّى كلّ تاريخ بنى إسرائيل من عهد موسى عليه السّلام إلى عهد محمّد بن عبد اللّه ﷺ ، وأنّ قولهم إنّ قلوبهم غلف كان موجّهًا إلى المصطفى ﷺ . ولمّا كان كافرو بنى إسرائيل على عهد المصطفى ﷺ قد انصرفوا عمدًا عن دعوة المصطفى ﷺ لهم إلى الإسلام وقالوا على سبيل الاستهانة والاستهزاء إنّ قلوبهم عليها أغشية وأغطية فقد زادهم اللّه تعالى صرف قلوبٍ عن دعوة الحقّ إلى انصرافهم وإعراضهم وكفرهم .

ولمّا كان قولهم : « قلوبنا غلف » يظهر كلّ قلبٍ من قلوب هؤلاء

(١) تفسير الطّبرى ٦/ ٨ .

(٢) تفسير الطّبرى ٦/ ٨ .

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى « غلف » ٣٦٤ .

الكافرين وقد وُضع فى داخل غلافه وغطائه وَظَرْفِه وأغلق عليه الغلاف والغطاء والظَّرف ، ولمّا كان الظَّرف فى مثل هذه الحال بحاجة إلى أن يُطْبَعَ عليه ويُختَم كيلا يخرج منه ما هو بداخله وكيلا يدخل فيه ما هو بخارجه ، ولمّا كان الكافرون قد انصرفوا وقد زادهم اللّه تعالى صرف قلوب وعمى ، لذا فقد جاء فى الآية الكريمة النّصّ على طبع اللّه تعالى على هذه القلوب . قال تعالى : ﴿بل طبع اللّه عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ إنّ قلوب كافرى بنى إسرائيل التى وضعوها فى ظروفها وأغلقوا عليها تلك الظّروف كيلا يتسلّل إليها نور الإيمان ، وكيلا يخرج منها شئٌ من الكفر قد طبع الله تعالى عليها وختم[1] بسبب كفرهم بآيات اللّه تعالى ومنها التّوراة الّتى تأمرهم باتّباع المصطفى ﷺ ، ومنها القرآن الكريم معجزة محمّد بن عبد اللّه ﷺ الكبرى الخالدة « فلا يؤمنون إلاّ قليلا» وذلك القليل هو الّذى شرح اللّه تعالى صدره للإسلام ، وزاده هدىً إلى هداه بسبب إيمانه وعدم اتّخاذه آيات اللّه تعالى هزواً كعبد الله بن سلام وغيره من بنى إسرائيل ، الّذين شرح اللّه تعالى صدرهم للإسلام وأراد اللّه تعالى بهم خيراً .

ومن البيّن تكرار لفظ الكفر فى الآية الكريمة ممّا يفهم منه أنّ العلّة الحقيقية للقوم هى الكفر . ومن البيّن كذلك أنّ الكفر فى المرّة الأولى عامٌّ ويرتبط بآيات اللّه تعالى الّتى خصّ بها موسى عليه السّلام ، وأنّ الكفر فى المرّة الثانية خاصٌّ ومتعلّقٌ بكفرهم بمحمّد بن عبد اللّه ﷺ . والعجيب فى أمر القوم أنّ الكفر ملازمٌ لهم على عهد موسى عليه السّلام وعلى عهد محمّد ﷺ وعلى عهد عيسى عليه السّلام وإلى هذا الكفر الأخير أشارت الآية الكريمة التّالية فإلى :

---

(١) انظر معجم مقاييس اللّغة « طبع » ٣/٤٣٨ .

الآية رقم (١٥٦)

قال تعالى : وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾

تجيء باء السّببيّة فى القول « وبكفرهم » دليلاً على أنّنا بصدد كفرٍ من نوع جديد . إنّ لعنهم فى الآية الكريمة السّابقة إنّما كان بسبب نقضهم الميثاق وكفرهم بمحمّد ﷺ . وإنّ لعنهم فى هذه الآية الكريمة كان بسبب كفرهم بعيسى عليه السّلام وقولهم عنه وعن أمّه بهتاناً عظيما . والمعروف أنّ اليهود يكفرون بكلٍّ من عيسى ومحمّد عليهما صلوات اللّه تعالى وسلامه . وليس لعن اللّه تعالى بنى إسرائيل فى الآية الكريمة بسبب كفرهم بعيسى عليه السّلام فقط وإنّما هو كذلك بسبب قولهم على مريم البتول الطّاهرة الذّيل العفيفة بهتاناً عظيماً وكذبًا كبيراً يصيب من سمعه بالدّهشة والحَيْرة ، وذلك باتّهامهم لها «كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا » بالزّنا ، عليهم لعائن اللّه تعالى المتتابعة إلى يوم الدّين.

ولم يقف كافرو بنى إسرائيل عند كفرهم بعيسى عليه السّلام واتّهامهم لأمّه البتول الّتى أحصنت فرجها بنصّ القرآن الكريم واتّهامهم له عليه الصّلاة والسّلام تبعاً لاتّهامهم البتول ، إنّما تجاوزوا ذلك إلى الحرص على قتله عليه السّلام والفخر بأنّهم قتلوه عليه الصّلاة والسّلام وصلبوه ، وكذبوا ، وإلى ذلك أشارت .

الآيتان رقم (١٥٧ ، ١٥٨)

قال تعالى :

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا

من البيّن أنّ الآية الكريمة لا يتكرّر فى مطلعها حرف الباء الدّالّ على السّببيّة فلا يجىء القول : وبقولهم ، إنّما يجىء القول : « وقولهم إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول اللّه » ممّا هو دليلٌ على أنّ الكلام موصول ، وأنّ القول معطوفٌ على القول فى الآية الكريمة السّابقة ، وأنّ الكفر بعيسى عليه السّلام الّذى أشار إليه القول : « وبكفرهم » وما يترتّب عليه من قولٍ وقولٍ سبب اللّعن الّذى حلّ بهم من اللّه تعالى .

وإنّ بنى إسرائيل الّذين قالوا عن مريم البتول بهتانًا عظيمًا هل يؤمنون بأن المسيح عليه السّلام هو ابن مريم ؟ لا بطبيعة الحال . وهل يؤمنون بأنّ عيسى عليه السّلام رسول اللّه ؟ لا بطبيعة الحال . إذن ما الّذى يريد بنو إسرائيل بالقول على لسانهم : « إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول اللّه » ؟ يريدون الفخر بقتل المسيح عليه السّلام ويريدون الاستهزاء والسّخرية بما وراء ذلك . والمعنى أنّهم قالوا: ها نحن أولاء قتلنا المسيح الذى يزعم الزّاعمون أنّه ابن مريم ، والذّى يزعم أنّه رسول اللّه . وكأنّ لسان حالهم يقول : لو كان حقّاً كلمة اللّه تعالى ورسوله لما تمكّنّا من قتله ، ونسي بنو إسرائيل أنّ لهم يداً قذرةً ملوّثةً بقتل الأنبياء بغير حقّ . إنّ بنى إسرائيل كانوا حريصين على إلحاق عيسى عليه السّلام بالنّبيّين الّذين قتلوهم من قَبْل ولكنّ اللّه سبحانه وتعالى نجّاه منهم ورفعه جلّ وعلا إليه . والآية الكريمة تقرّر على الفور أنّهم ما قتلوا عيسى عليه السّلام كما ظنّوا ، وما صلبوه عليه السّلام كما ادّعوا ، ولكن شُبّه لهم . وهنا نودّ أن نستأنس بما جاء عن السّلف فى هذا الشأن فلا مجال لرأيٍ ولا مكان لاجتهاد . عن ابن عبّاس قال : لمّا أراد اللّه أن يرفع عيسى إلى السّماء خرج على أصحابه وفى البيت اثنا عشر رجلاً من الحواريّين، يعنى فخرج عليهم من عينٍ فى البيت ورأسه يقطر ماءً فقال : إنّ منكم من يكفر بى اثنتى عشرة مرّة بعد أن آمن بى . قال :ثمّ قال : أيّكم يُلقى عليه شبهى فيقتل مكانى ويكون معى فى درجتى . فقام شابٌّ من أحدثهم سنّاً فقال له اجلس . ثمّ أعاد عليهم فقام ذلك الشّابّ فقال : اجلس . ثمّ أعاد عليهم فقام الشّاب

فقال : أنا . فقال : هو أنت ذاك . فألقي عليه شبه عيسى ، ورُفع عيسى من رَوْزنة(١) فى البيت إلى السّماء . قال وجاء الطّلب من اليهود فأخذوا الشّبه فقتلوه ثمّ صلبوه فكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرّةً بعد أن آمن به . وافترقوا ثلاث فرق . فقالت فرقة كان اللّه فينا ما شاء ثمّ صَعِد إلى السّماء ، وهؤلاء اليعقوبيّة . وقالت فرقة : كان فينا ابن اللّه ما شاء ثمّ رفعه اللّه إليه ، وهؤلاء النّسطوريّة . وقالت فرقة : كان فينا عبد اللّه ورسوله ما شاء اللّه ثمّ رفعه اللّه إليه وهؤلاء المسلمون . فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها . فلم يزل الإسلام طامساً حتّى بعث اللّه محمّداً ﷺ . وهذا إسنادٌ صحيحٌ إلى ابن عبّاس ورواه النّسائى وكذا ذكره غير واحد من السّلف(٢).

وهكذا يتبيّن أنّ معنى القول : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم » أنّ اليهود الّذين تبجّحوا بأنّهم قتلوا عيسى عليه السّلام وصلبوه ما قتلوه فى الحقيقة ولا صلبوه ، إنّما قتلوا وصلبوا من جعل اللّه سبحانه وتعالى صورته صورة عيسى عليه السّلام وبذلك شبّه عليهم وظنّوا أنّهم قتلوا عيسى عليه السّلام وهم إنّما قتلوا شِبْهَه .

وإنّ بقيّة الآية الكريمة يؤكّد هذا المعنى ويقلّب هذه الحقيقة على وجوهها المختلفة . قال تعالى ﴿ وإنّ الّذين اختلفوا فيه لفى شكٍّ منه ما لهم به مِنْ عِلْم إلا اتّباع الظّنّ وما قتلوا يقينا ﴾ .

وبين يدى تأملنا لهذا القول نودّ أن نقف عند بعض الألفاظ القريبة الفروق بينها معنويًا . وهذه الألفاظ هى الشّكّ والعلم والظّنّ واليقين . والمعروف أنّ لفظة الشّكّ تقف من اليقين على طرفى نقيض ، والمعروف كذلك أنّا حينما ننظر إلى هذه الألفاظ الثّلاثة العلم الظّنّ الشّكّ نستطيع أن نذهب إلى أنّ العلم يمثّل أعلى الدّرجات الثّلاث المذكورة . فإذا كان ثمّة تذبذب بين العلم

(١) الرَّوزنة : الكُوَّة .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٥٧٤ وتفسير الطبرى ٦/ ١٠ - ١٣ .

والشّكّ كانت الحصيلة هى الظّنّ وهى المرحلة الوسطى بين المراحل الثّلاث . فإذا كان ثمّة تذبذبٌ بين الظّنّ والشّكّ وكان الشّكّ هو الغالب كانت الحصيلة هى الشّكّ. ومن البيّن أنّ الشّكّ دركات ، وأنّ الظّنّ يتذبذب بين الدّرجات صعوداً وبين الدّركات حدوراً وهو إلى الحدور أقرب . ومن البيّن أنّ العلم أرفع الدّرجات وأسماها ، وإذا تأكّد ارتقى إلى درجة اليقين .

فى ضوء هذه المحاولات لتبيين ما يصحّ أن يكون فروقًا بين معانى هذه الألفاظ الأربع الّتى اجتمعت فى حيّز محدودٍ من آية كريمة تميل إلى القِصر ، وهذا أمرٌ عجيبٌ يدلّ على أنّ الحكمة كانت تفرض على البشر ألا يخوضوا فى هذه المسألة العجيبة الغريبة الّتى لا يعلمها على حقيقتها إلا اللّه تعالى ، فى ضوء هذه المحاولات لننظر إلى هذا القول ﴿ وإنّ الّذين اختلفوا فيه لفى شكٍّ منه ما لهم به من علمٍ إلا اتّباع الظّنّ وما قتلوه يقينا ﴾ فما معنى هذا القول على الإجمال أوّلاً ؟ وما الّذى يمكن أن يستفاد من هذه الألفاظ ثانيا ؟ معنى هذا القول أنّ الّذين اختلفوا فى عيسى عليه السّلام والّذين قالوا بقتله والّذين قالوا بعدم قتله لفى شكٍّ من قتله عليه الصّلاة والسّلام . وهكذا يتبيّن أنّ الشّكّ فى قتل عيسى عليه السّلام كان سمة الّذين مالوا إلى احتمال قتله فكيف بالذين مالوا إلى احتمال عدم قتله ! لماذا ؟ لأنّ الوجه وجه عيسى عليه السّلام والجسد ليس بجسده .

وتنفى الآية الكريمة أن يكون لدى القائلين باحتمال قتل عيسى عليه السّلام أدنى قدرٍ من علم . ويفهم نفي هذا القدر الضئيل من العلم من استعمال حرف الجرّ مِنْ الّذى يفيد التّبعيض ومن التنكير : « ما لهم به من علم» وهكذا يثبت السّياق الشّكّ وينفى العلم ، كما يثبت السّياق الشّئ الوحيد الّذى لدى القوم وهو الظّنّ الّذى اتّبعوه وقد قال عزّ من قائل[1] ﴿وإنّ الظّنّ لا يغنى من الحقّ شيئا ﴾ وجاء هنا القول : ﴿ ما لهم به من علم إلا اتّباع الظّنّ ﴾

(١) سورة النّجم : ٢٨ .

وانظر إلى هؤلاء الّذين يجيزون احتمال القتل كيف يتّبعون الظّنّ وكيف يقودهم الظّنّ ويتخبّط بهم فى دائرته محاولاً جذبهم بعيداً عن دائرة الشّكّ ولكن أنّى يكون العلم واليقين ؟ إنّ العلم واليقين بعيدان عن القوم قربهم من الشّكّ والظّنّ . وإذا كانت الآية الكريمة قد نفت العلم عن القوم بل أدنى العلم وذلك فى القول : ﴿ما لهم به من علمٍ إلاّ اتّباع الظّنّ﴾ فإنّها نفت عنهم يقين القتل فى ختام الآية الكريمة : ﴿ وما قتلوه يقينا ﴾ .

وهكذا يتبيّن أنّ القوم فى دائرة الشّكّ وأنّ منتهى ما تحقّق لهم فى حرصهم على الابتعاد عن دائرة الشّكّ أن اتّبعوا الظّنّ الّذى لا يغنى عن الحقّ شيئا .

وإنّ الشّئ الّذى نودّ أن نشير إليه هو أنّ قوله تعالى : ﴿ وإنّ الّذين اختلفوا فيه لفى شكٍّ منه ما لهم به من علم إلاّ اتّباع الظّنّ وما قتلوه يقينا ﴾ هو الموطن الوحيد فى القرآن الكريم الّذى يجمع فى حيّزٍ واحد صغير الشّك والظّنّ الّلذين يثبتهما والعلم واليقين اللّذين ينفيهما .

وإنّ الآية الكريمة التّالية لتبيّن العلم واليقين فى شأن عيسى عليه السّلام قال تعالى : ﴿ بل رفعه اللّه إليه وكان اللّه عزيزاً حكيماً ﴾ والمعروف أن « بل» تفيد الإضراب والسّكوت عمّا قبلها واعتباره فى حكم عدم الموجود . إنّ اللّه سبحانه وتعالى رفع عيسى عليه السّلام إليه جلّ وعلا فى السّماوات العلى . وينبغى أن يكون للجارّ والمجرور الّذى لا تستغنى عنه الآية الكريمة ، وكان فى إمكانها ذلك ، ينبغى أن يكون للجارّ والمجرور دَوْرٌ فى قوّة الدّلالة على رفع عيسى عليه السّلام إليه جلّ وعلا وحده لا شريك له .

إنّ كلّ الّذى حصل لعيسى عليه السّلام حتّى إنقاذ اللّه تعالى له عليه السّلام ورفعه دليلٌ على كلٍّ من عزّة اللّه تعالى وحكمته البالغة . وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة فى القول : ﴿وكان اللّه عزيزاً حكيما﴾ إنّ اللّه سبحانه وتعالى هو العزيز فى ملكه الحكيم فى صنعه . وفى الإمكان أن نستأنس ببعض

آى الذّكر الحكيم فى هذا الشّأن. قال تعالى[١] ﴿فلمّا أحسّ عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى اللّه . قال الحواريّون نحن أنصار اللّه آمنّا باللّه وأشهد بأنّا مسلمون. ربّنا آمنّا بما أنزلت واتّبعنا الرّسول فاكتبنا مع الشّاهدين . ومكروا ومكر اللّه واللّه خير الماكرين . إذ قال اللّه يا عيسى إنّى متوفّيك ورافعك إلىّ ومطهّرك من الّذين كفروا وجاعل الّذين اتّبعوك فوق الّذين كفروا إلى يوم القيامة ثمّ إلىّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون . فأمّا الّذين كفروا فأعذّبهم عذاباً شديداً فى الدّنيا والآخرة وما لهم من ناصرين . وأمّا الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات فيوفّيهم أجورهم . واللّه لا يحبّ الظّالمين . ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾ .

ولمّا كان عيسى عليه السّلام قد رفعه اللّه تعالى إليه ، ولمّا كان ربّ العزّة قد قال[٢] : ﴿ كلّ من عليها فان . ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام ﴾ وقال عزّ من قائل[٣] : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارةً أخرى ﴾ فقد أشارت الآية الكريمة التّالية إلى موت عيسى عليه السّلام فإلى :

الآية رقم (١٥٩)

قال تعالى :

وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾

وبين يدى حديثنا عن الآية الكريمة نودّ أن نقتبس بعض النّصوص المفيدة والمرشدة لنا . يقول ابن كثير[٤] رحمه اللّه تعالى رحمة واسعة : « قال البخارىّ رحمه اللّه فى كتاب ذكر الأنبياء من صحيحه المتلقّى بالقبول : نزول عيسى ابن مريم عليه السّلام . حدّثنا إسحاق بن إبراهيم حدّثنا يعقوب بن

(١) سورة آل عران : ٥٢ - ٥٨ .
(٢) سورة الرّحمن : ٢٦ ، ٢٧ .
(٣) سورة طه : ٥٥ .
(٤) تفسير ابن كثير ١/٥٧٨ .

إبراهيم عن أبى صالح عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيّب عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ : والّذى نفسى بيده ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً فيكسر الصّليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية[١] ويفيض المال حتّى لا يقبله أحد ، وحتّى تكون السّجدة خيراً له من الدّنيا وما فيها . ثمّ يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً . وكذا رواه مسلم » وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة أنّ النّبىّ ص قال : الأنبياء إخوةٌ لعَلاّت[٢] أمّهاتهم شتّى ودينهم واحد . وإنّى أولى النّاس بعيسى ابن مريم لأنّه لم يكن نبيٌّ بينى وبينه . وإنّه نازلٌ فإذا رأيتموه فاعرفوه . رجلٌ مربوع[٣] إلى الحمرة والبياض ، عليه ثوبان ممصّران[٤] كأنّ رأسه يقطر وإنّ لم يصبه بلل ، فيدقّ الصّلب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية ، ويدعو النّاس إلى الإسلام ، ويهلك اللّه فى زمانه الملل كلّها إلاّ الإسلام ، ويهلك اللّه فى زمانه المسيح الدّجّال . ثمّ تقع الأمانة على الأرض حتّى ترتع الأسود مع الإبل ، والنّمار مع البقر ، والذّئاب مع الغنم ، ويلعب الصّبيان بالحيّات لا تضرّهم . فيمكث أربعين سنةً ثمّ يُتَوفّى ويصلّى عليه المسلمون . كذا رواه أبو داود[٥] .

وبعد أن ذكر ابن كثير مجموعةً من الأحاديث النّبويّة الشّريفة يقول[٦] : «فهذه أحاديث متواترة عن رسول اللّه ﷺ من رواية أبى هريرة وابن مسعود وعثمان بن أبى العاص وأبى أمامة والنّوّاس بن سمعان وعبد اللّه بن عمرو بن العاص ومجمع بن حارثة وأبى شريحة وحذيفة بن أسيد رضى اللّه عنهم .

---

(١) بمعنى أنّه لايقبل الجزية فإمّا الإسلام أو السّيف . انظر تفسير ابن كثير ١/ ٥٧٧ .

(٢) العَلّة بفتح العين الضَّرّة والمراد من أمّهاتٍ شتّى لرجل واحد .

(٣) الرّجل المربوع : الوسيط القامة .

(٤) ثوبٌ ممصّر : مصبوغٌ بالمِصر بكسر الميم وهو ترابٌ أحمر .

(٥) تفسير ابن كثير ١/ ٥٧٨ وانظر تفسير الطّبرى ٦/ ١٦ .

(٦) تفسير ابن كثير ١/ ٥٨٢ .

وفيها دلالة على صفة نزوله ومكانه من أنّه بالشّام بل بدمشق عند المنارة الشّرقيّة وأنّ ذلك يكون عند إقامة صلاة الصبح » ويقول[١]:« وقد تقدّم فى حديث عبد الرّحمن بن آدم عن أبى هريرة أنّ عيسى عليه السّلام يمكث فى الأرض بعد نزوله أربعين سنة ثمّ يتوفىّ ويصلّى عليه المسلمون . وفى حديث عبد اللّه بن عمر عند مسلم أنّه يمكث سبع سنين . فيحتمل واللّه أعلم أن يكون المراد بلبثه في الأرض أربعين سنة مجموع إقامته فيها قبل رفعه وبعد نزوله فإنّه رفع وله ثلاثٌ وثلاثون سنةً فى الصّحيح » .

وبعد هذه الجولة الممتعة مع هذه الأحاديث النّبويّة الشّريفة نعرّج على إعراب أوّل الآية الكريمة لمعرفة كيفيّة البناء : « وإن من أهل الكتاب » الواو : استئنافيّة . إن نافية بمعنى ما. من أهل : جارّ ومجرور متعلّق بنعت لمنعوت محذوف هو مبتدأ أى ما أحدٌ من أهل الكتاب[٢] ويصحّ أن يكون المعنى: ما من أهل الكتاب أحد[٣].

وبناءً على ما سبق يكون معنى الآية الكريمة ، واللّه تعالى أعلم ، وما من أهل الكتاب أحدٌ إلا ليؤمننّ بعيسى عليه السّلام قبل موته عليه السّلام ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ، هكذا فى صيغة المبالغة ، بأنّه عليه السّلام قد بلّغ الرّسالة وأدّى الأمانة وأمر قومه باتّباع محمّد ﷺ حينما يُبْعَثُ عليه الصّلاة والسّلام ، وشهد على أهل الكتاب بتكذيب من كذّبه منهم ، وتصديق من صدّقه منهم ، فيما أتاهم به من عند اللّه وبإبلاغه رسالة ربّه[٤] ويقول ابن كثير[٥] :« فأخبرت هذه الآية الكريمة أنّه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ ولا يتخلّف عن التّصديق به واحدٌ منهم ولهذا قال : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننّ به قبل موته ، أى قبل موت عيسى عليه السّلام الّذى زعم اليهود ومن

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٨٣ .
(٢) انظر مثلا الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٣/ ٢٠٠ .
(٣) الجلالين .
(٤) تفسير الطّبرىّ ٦/ ١٧ .
(٥) تفسير ابن كثير ١/ ٥٧٧ .

وافقهم من النّصارى أنّه قُتِل وصُلِب » .

وإذا كانت الآيات الكريمات قد بيّنت الأسباب الّتى من أجلها استحقّ بنو إسرائيل اللّعن فإنّ الآيتين الكريمتين التّاليتين تبيّنان مظاهر الظّلم الّتى تورّط فيها بنو إسرائيل والبغي والّتى استحقّوا من أجلها أن يحرّم اللّه تعالى عليهم طيّبات أحلّها اللّه تعالى لهم من ذى قبل وهاتان هما :

الآيتان رقم (١٦٠ ، ١٦١)

قال تعالى :

فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟
حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ
بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾

قوله تعالى « فبظلم » عطفٌ على قوله « فبما نقضهم » كأنه قال : فبنقضهم لعنّاهم وأوجبنا عذابهم ، فبظلم منهم حرّمنا عليهم المطاعم . وجعل اللّه هذه العقوبة الدّنيويّة إزاء ظلم بنى إسرائيل فى تعنّتهم وسائر أخلاقهم الذّميمة[١] وإنّ إشارة الآية الكريمة إلى تحريم اللّه تعالى طيّبات أحلّت لهم بسبب ظلمهم ، نستطيع أن ننظر إليها فى ضوء مثل قوله تعالى[٢] : ﴿ كلّ الطّعام كان حلاً لبنى إسرائيل إلاّ ما حرّم إسرائيل على نفسه من قَبْل أن تُنَزَّل التّوراة . قل فأتوا بالتّوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ والمعنى أنّ كلّ الطّعام كان حلالاً لبنى إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السّلام[٣] إلاّ ما حرّم إسرائيل عليه السّلام على نفسه وكان أن أخذه عِرْق النّسا[٤]

(١) تفسير ابن عطيّة ٤/ ٢٨٩ . (٢) سورة آل عمران : ٩٣ .
(٣) تفسير الطّبرىّ ٤/ ٣ وتفسير ابن كثير ١/ ٣٨٢ .
(٤) النّسا بفتح النّون : عِرقٌ من الوَرِك أى الكعب .

وأزعجه إزعاجاً شديداً فجعل على نفسه لئن شفاه الله منه ليَحرّمنّ أحبّ الطّعام والشّراب إليه ، فلمّا شفاه الله تعالى منه وَفّى بنذره فحرّم على نفسه لحم الإبل وألبانها وكانا أحبّ الطّعام وأحبّ الشّراب إليه عليه الصّلاة والسّلام[١] وبشأن اختلاف العلماء حول هذه الآية الكريمة من سورة آل عمران يقول الطّبرى[٢]: « وأولى الأقوال فى ذلك عندنا بالصّواب قول من قال: معنى ذلك: كلّ الطّعام كان حلاً لبنى إسرائيل من قبل أن تنزّل التّوراة إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه من غير تحريم الله ذلك عليه فإنّه كان حراماً عليهم بتحريم أبيهم إسرائيل ذلك عليهم من غير أن يحرّمه الله عليهم فى تنزيل ولا بوحى قبل التّوراة حتّى نزلت التّوراة فحرّم الله عليهم فيها ما شاء وأحلّ لهم فيها ما أحبّ. وهذا قولٌ قالته جماعةٌ من أهل التّأويل وهو معنى قول ابن عبّاس » ونستطيع كذلك أن ننظر إلى تحريم الله تعالى الطّيّبات على بنى إسرائيل فى ضوء قوله تعالى[٣]: ﴿وعلى الّذين هادوا حرّمنا كلّ ذى ظُفُر، ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما إلاّ ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم. ذلك جزيناهم ببغيهم وإنّا لصادقون﴾ والمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى حرّم على بنى إسرائيل بسبب بغيهم أكل كلّ ذى ظفر من البهائم والطّير وهو ما لم يكن مشقوق الأصابع كالإبل والنّعام والإوزّ والبط[٤] ومن البقر والغنم حرّم الله سبحانه وتعالى عليهم شحومهما والمراد الشّحم الّذى يَغْشَى الكَرِش والأمعاء وشحم الكُلْيتين[٥] إلاّ ما حملت ظهورهما: عن ابن عبّاس يعنى ما عَلِق بالظّهر من الشّحوم[٦] وما حملت الحوايا وهى الأمعاء من الشّحم وما اختلط من الشّحم بعظم وهو شحم الألْية والجنب وماأشبه ذلك[٧].

(١) انظر مثلا تفسير الطبرى ٤/ ٥ وتفسير ابن كثير ١/ ٣٨١ .
(٢) تفسير الطّبرىّ ٤/ ٣ . (٣) سورة الأنعام : ١٤٦ .
(٤) تفسير الطّبرىّ ٨/ ٥٤ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢/ ١٨٥ وتفسير الطّبرى ٨/ ٥٥ .
(٦) تفسير ابن كثير ٢/ ١٨٥ وتفسير الطّبرىّ ٨/ ٥٥ .
(٧) تفسير الطّبرىّ ٨/ ٥٦ .

ونستطيع كذلك أن ننظر إلى تحريم اللّه تعالى الطّيّبات على بنى إسرائيل فى ضوء القول على لسان عيسى عليه السّلام فى سورة آل عمران[١] قال تعالى: ﴿ومصدّقاً لما بين يديّ من التّوراة ولأحلّ لكم بعض الّذى حُرّم عليكم وجئتكم بآية من ربّكم فاتّقوا اللّه وأطيعون﴾ عن قتادة : كان الّذى جاء به عيسى ألين ممّا جاء به موسى[٢] .

وكما حرّم اللّه تعالى على بنى إسرائيل الطّيّبات الّتى كانت حلالاً وذلك بسبب ظلمهم وبغيهم ، حرّمها جلّ وعلا عليهم بسبب صدّهم الآخرين كثيراً عن سبيل اللّه تعالى وعن دين الإسلام الّذى رضيه جلّ وعلا لعباده والّذى لا يقبل جلّ وعلا أىّ دينٍ سواه .

وقد نصّت الآية الكريمة التّالية على سببين آخرين وراء تحريم الطّيّبات على بنى إسرائيل ، أحدهما أخذهم الربا وقد نهاهم اللّه تعالى عنه . والمعروف أنّ الرّبا هو الذّنب الوحيد الّذى أعلن اللّه تعالى الحرب على مرتكبه وأعلن رسوله عليه الصّلاة والسّلام . وآخرهما أكلهم أموال النّاس بالباطل وفى كلّ الصّور السّيّئة الّتى ينهى عنها كلّ دين وكل عقل كالغصب والرّشوة والاختلاس وما إلى ذلك . ومن البيّن أنّ المال هو الّذى يربط بين السّببين فى الآية الكريمة.

وإن أسوأ الصّفات الّتى اتّسم بها بنو إسرائيل صفة الكفر الّتى أشارت إليها الآية الكريمة فى التّذييل وقرّرت أنّ اللّه سبحانه وتعالى قد أعدّ لكافرى بنى إسرائيل عذاباً أليماً يوم القيامة ﴿ وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ﴾ .

وفى مقابل هؤلاء النّاقضين للعهد المؤكّد من بنى إسرائيل والظّالمين والكافرين هنالك الّذين سيؤتيهم اللّه سبحانه وتعالى أجراً عظيماً من لدنه يوم القيامة وهم فريقان ، الرّاسخون فى العلم والمؤمنون وإلى ذلك أشارت

---

(٨) الآية : ٥٠ .

(١) تفسير الطّبرىّ ٣/١٩٦ .

الآية رقم (١٦٢)

قال تعالى :

لَّٰكِنِ
ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ
أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

تستثنى الآية الكريمة فريقين من بنى إسرائيل من العذاب الأليم . الفريق الأوّل هم الرّاسخون فى العلم ، والّذين لهم قدم صدق فيه ، والّذين حينما يتبيّن لهم وجه الحقّ لا تأخذهم فى الحقّ لومة لائم كعبد اللّه بن سلام رضى اللّه عنه الّذى أعلن إسلامه حينما تأكّد أنّ محمّد بن عبد اللّه ﷺ هو النّبىّ الّذى جاء نعته فى التّوراة الّتى أوحاها اللّه تعالى إلى موسى عليه السّلام . والفريق الآخر هم المؤمنون من بنى إسرائيل الّذين آمنوا باللّه تعالى ربّاً ، وبمحمّد بن عبد اللّه ﷺ نبيّاً ورسولاً ، وبالإسلام ديناً ، وبالقرآن دستوراً . إنّ هؤلاء المؤمنين من بنى إسرائيل يؤمنون بالقرآن الكريم والكتب السّماويّة الّتى أوحاها اللّه تعالى إلى النّبيّين من قبل ، ومنها التّوراة الّتى أوحاها اللّه تعالى إلى موسى عليه السّلام ، والإنجيل الّذى أوحاه اللّه تعالى إلى عيسى عليه السّلام ، لأنّ من شروط الإيمان الإيمان بكلّ الرّسل وبكل الكتب السّماوية. والمعروف أن بنى إسرائيل لا يؤمنون بعيسى ومحمّد عليهما صلاة اللّه وسلامه ، ولا بالإنجيل والقرآن .

وبما أنّ هؤلاء المؤمنين من بنى إسرائيل قد اعتنقوا دين الإسلام الّذى بعث اللّه تعالى به محمّدًا ﷺ والّذى لا يقبل اللّه تعالى غيره ، وبما أنّهم مستمسكون بتعاليم الإسلام وبتطبيق تعاليمه ، لذا فإنّهم يحقّقون أركان الإسلام والإيمان. ومن أركان الإسلام إقامة الصّلاة وإيتاء الزّكاة . ويلاحظ أنّ الإشارة إلى الصّلاة جاءت فريدة فى الآية الكريمة لأنّ القول : ﴿ والمقيمين الصّلاة ﴾ منصوبٌ على الاختصاص وعلى المدح ، وفى ذلك تنويهٌ بهذا الرّكن الثانى من

أركان الإسلام لأنّ الصّلاة عماد الدّين ، كما يلاحظ الجمع فى نسق بين الصّلاة والزّكاة، والمعروف أنّ الجمع بين الصّلاة والزّكاة فى القرآن الكريم جاء فيما يزيد على الثّمانين موضعاً ، وذلك دليلٌ على أهميّة كلّ من الصّلاة والزّكاة فى الإسلام. والمعروف أنّ الصّلاة أشرف أركان الإسلام فى مجال العبادات ، وأنّ إيتاء الزّكاة أشرف الأركان فى مجال النّفقات وإيتاء المال .

ومن أركان الإيمان الّتى أشارت إليها الآية الكريمة الإيمان بالله وباليوم الآخر. وحينما يكون هنالك إيمان صحيحٌ بالبداية وبالنّهاية يكون هنالك إيمانٌ صحيحٌ بما بينهما من أركانٍ للإيمان وللإسلام ، بل وللإحسان ، بأن تعبد الله كأنّك تراه فإنّ لم تكن تراه فإنّه يراك .

وإنّ تقديم العلم على الإيمان فى الآية الكريمة يذكّرنا بقوله عزّ من قائل فى سورة محمّد[1] : ﴿ فاعلم أنّه لا إله إلا الله ﴾ إنّ العلم الصّحيح وقدم الصّدق فيه والرّسوخ فى العلم يؤدى كلّ ذلك إلى الإيمان الصّحيح . إنّ هذه الحقيقة أومأت إليها كلٌّ من الآيتين الكريمتين .

وإنّ ثمرة كلٌّ من العلم الصّحيح والإيمان المليح أن يؤتي الله سبحانه وتعالى أولئك المؤمنين أجراً عظيمًا يوم القيامة . وإنّ إيمان بنى إسرائيل بمحمّد ص يعنى أنّ لهم أجرين اثنين أجر اتّباع موسى عليه السّلام ، والشّىء ذاته يقال عن النّصارى أتباع عيسى عليه السّلام ، وأجر اتّباع محمّد بن عبد الله ﷺ . وإنّ هذه النّعمة تذكّرنا بمثل قوله تعالى فى سورة القصص[2]: ﴿ ولقد وصّلنا لهم القول لعلّهم يتذكّرون . الّذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يُتْلَى عليهم قالوا آمنّا به إنّه الحقّ من ربّنا إنّا كنّا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السّيّئةَ ومّما رزقناهم يُنفقون . وإذا سمعوا اللّغْو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ علَيكم لا نبتغى الجاهلين ﴾ .

---

(١) الآية : ١٩ .

(٢) الآيات : ٥١ - ٥٥ .

(٢٠)

الإيحاء بالنّبوّة وبالقرآن وثواب المؤمنين وعقاب الكافرين

الآيات (١٦٣ ـ ١٧٠)

۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ
وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ
وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ
وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ
مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ
تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ
لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا
﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ
وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا
﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا
لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ
وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ
ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ
فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧٠﴾

بينت آيات القسم السّابق الكثير من تعنّت بنى إسرائيل واستثنت فريقين اثنين، الرّاسخين فى العلم والمؤمنين . وإنّ من أهم نعوت هؤلاء تصديق المصطفى ﷺ الّذى أوحى اللّه تعالى إليه القرآن الكريم. وفى هذا القسم التّالى يتمّ التّحوّل إلى الحديث عن إيحاء اللّه تعالى إلى عدد من المُصْطَفَيْنَ الأخيار ، وإلى ذكر بعض المزيد من الفضل على بعض هؤلاء المصطفين الأخيار والإنعام عليهم من اللّه تعالى. فداود عليه السّلام آتاه اللّه تعالى الزّبور . وموسى عليه السّلام كلّمه اللّه تعالى تكليما . وكان الحديث عن هذا المزيد من الفضل من اللّه تعالى على هذين النّبيّين الكريمين قد أتبعه الحديث عن المزيد من فضل اللّه تعالى على هذا الرّسول الكريم وذلك فى هيئة القرآن الكريم الّذى يشهد اللّه تعالى أنّه أنزله على المصطفى ﷺ كما يشهد الملائكة المقرّبون . إنّ اللّه سبحانه وتعالى قد أرسل كلّ هؤلاء المرسلين، من قصّهم القرآن الكريم على النّبى ﷺ ومن لم يقصص ، وأرسل خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين، لئلاّ يكون للنّاس على اللّه تعالى حجّة ولئلاّ يقولوا ﴿ربّنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك ونكون من المؤمنين﴾(١) وعلى الرغم من إرسال الرّسل وإيتاء الآيات فإنّ هناك من كفر وصدّ عن سبيل اللّه تعالى وأصرّ على كفره، ولأولئك النّار وبئس القرار . إنّ على النّاس جميعاً أن يتّبعوا خاتم الأنبياء وأشرف المرسلين الّذى أنزل اللّه تعالى عليه القرآن الكريم، ففى ذلك الخير كلّ الخير لهم، أمّا إن كفروا فإنّ اللّه سبحانه هو الغَنِيّ الّذى له ما فى السّماوات والأرض وهو العليم الحكيم

(١) سورة القصص ٤٧ .

الآيتان رقم (١٦٣ ، ١٦٤)

قال تعالى :

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾

يمكن أن نتحدّث عن الآيتين الكريمتين أوّل الأمر فى هيئة نقاط .

١- قرّرت الآية الكريمة الأولى ابتداءً أنّ اللّه سبحانه وتعالى أوحى إلى محمّد بن عبد اللّه ﷺ، والمراد بالإيحاء هنا الإيحاء بالنّبوّة والرسالة، كما قرّرت الإيحاء إلى النّبيّين الآخرين ابتداءً بنوح عليه السلام .

٢- على الرّغم من كون المصطفى ﷺ خاتم النّبيّين فإنّ السّياق يذكره ابتداءً دليلاً على كونه عليه الصّلاة والسّلام أشرف المرسلين، عليهم جميعاً صلوات اللّه تعالى وسلامه .

٣- بعد أن يذكر السّياق الإيحاء إلى خاتم النّبيّين يتحوّل إلى أوّلهم نوح عليه السلام .

٤- يذكر السياق أولى العزم من الرسّل الخمسة مبتدئاً بآخرهم محمّد بن عبد اللّه ﷺ دليلاً على أنّه عليه الصلاة والسّلام زعيم أولى

العزم من الرّسل ، ثم يتحوّل إلى نوح عليه السّلام باعتباره - فيما نظنّ - أوّل رسول أرسله اللّه تعالى إلى بنى آدم عليه السلام، ثمّ يذكر السّياق بقيّة أولى العزم من الرسّل وهم إبراهيم عليه السّلام باعتباره أبا الأنبياء، وعيسى عليه السلام آخر أنبياء بنى إسرائيل ، وموسى عليه السّلام أول أنبياء بنى إسرائيل .

٥- يشمل السّياق كلّ الأنبياء الّذين ذُكِرَتْ أسماؤهم والّذين لم تذكر أسماؤهم لأنّ القول : «مِنْ بعده» من القول : ﴿كما أوحينا إلى نوح والنّبيّين من بعده﴾ يشمل كلّ الأنبياء . ثمّ خصّ السّياق بعضاً منهم بالذّكر .

٦- بعد أن ذكر السّياق إبراهيم عليه السّلام أبا الأنبياء وأحد أولى العزم من الرّسل ذكر ابنه الكبير إسماعيل عليه السّلام، وابنه الصّغير إسحاق عليه السّلام، وذكر يعقوب عليه السّلام ابن إسحاق ابن إبراهيم عليهما السّلام . ويعقوب عليه السّلام هو إسرائيل . والأسباط الّذين ذكرهم السّياق هم الاثنا عشر ولداً ذكراً ليعقوب عليه السّلام، وفيهم يوسف عليه السّلام النّبىّ الوحيد من بين أبناء يعقوب عليه السلام وهم الأسباط . وكأنّ الأسباط ذُكروا ضمن الموحى إليهم، بينما الموحى إليه يوسف عليه السّلام من بينهم، لأن الخير الّذى خصّ اللّه تعالى به يوسف عليه السّلام قد شمل آل يعقوب وفيهم إخوة يوسف وهم الأسباط وذلك حينما جاء يعقوب عليه السّلام وآله من الشّام إلى مصر، بناءً على دعوة من يوسف عليه السّلام عزيز مصر آنذاك إلى آل يعقوب وفيهم إخوته الأحد عشر . قال تعالى ﴿وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ وهذا النّسق يذكّرنا بالنّسق ذاته فى الآيتين الكريمتين السّادسة والثلاثين بعد المائة والأربعين بعد المائة من سورة البقرة والآية الرابعة والثمانين

من سورة آل عمران . والمعروف أنّ الأسباط وهم أولاد يعقوب عليه السّلام الاثنا عشر قد وُلد لكلّ واحد منهم حتى أصبحوا بمثابة اثنتى عشرة قبيلة أو سِبْطًا؛ وعليه يكون السِّبط بمعنى الجماعة والقبيلة الرّاجعين إلى أصل واحد (١) .

٧- إذا كان الابتداء بذكر محمّد ﷺ باعتباره زعيم أولى العزم من الرّسل، وكان الحديث بعد ذلك عن نوح عليه السّلام باعتباره أوّل الأنبياء والمرسلين، فإنّ الحديث بعد ذلك عن إبراهيم عليه السلام لأن النّاس جميعاً مأمورون باتخاذه عليه السّلام أسوةً حسنةً وباتّباعه عليه السلام وذلك فى هيئة اتخاذ محمد بن عبد الله ﷺ أسوة حسنة وباتباعه عليه الصلاة والسلام وقد قال تعالى(٢) : ﴿لقد كان لكم فى رسول اللّه أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو اللّه واليوم الآخر وذكر اللّه كثيراً﴾ والمعروف أنّ محمّد بن عبد اللّه ﷺ قد بعثه اللّه تعالى بالنسخة الكاملة من الحنيفيّة السّمحة دين إبراهيم عليه السلام، وأنّ محمّد بن عبد اللّه ﷺ هو النّبى الوحيد الّذى يمكن اتخاذه أسوة حسنة، بمعنى لو أنّا أردنا أن نتّخذ من إبراهيم عليه السّلام وغيره من النبيين أسوة حسنة لما أمكن ذلك . وهكذا يتبيّن أن ذكر نوح عليه السّلام لأنّه أوّلهم، وأنّ ذكر إبراهيم عليه السّلام لأنّه أبو الأنبياء ولأن الأمر باتّباعه عليه السّلام أمرٌ فى الحقيقة باتّباع محمّد بن عبد اللّه ﷺ .

٨- من المعروف أنّ النّبى الوحيد من ذريّة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السّلام هو محمّد بن عبد اللّه ﷺ ، وأن كلّ الأنبياء وراء ذلك من ذريّة إسحاق بن إبراهيم عليهما السّلام. وعليه يكون الحديث عن كلّ الأنبياء بعد ذلك تأكيداً لأبوّة إبراهيم عليه السلام للأنبياء .

---

(١) انظر تفسير القرطبىّ ٥٢٦ .

(٢) سورة الأحزاب ٢١ .

٩- بعد أن يذكر السّياق سلسلة النّبوّة المتّصلة الحلقات فى آل إبراهيم عليه السّلام انتهاءً بالأسباط باعتبار يوسف عليه السّلام واحداً من هؤلاء النّبيّين المنعم عليهم المصطفين الأخيار، وباعتباره عليه السلام مختاراً من بين الأسباط، يتحول الحديث إلى عيسى آخر أنبياء بنى إسرائيل . والمعروف أن الآيات السّابقات فى القسْم السّابق قد تحدثّت عنه عليه السّلام كثيراً، وأنّه عليه السلام من علامات السّاعة، وسينزل مرّةً أخرى إلى الأرض واحداً من أتباع محمّد بن عبد اللّه ﷺ. وهكذا يتبيّن أنّ ذكر عيسى عليه السّلام يهدف إلى تسلية المصطفى ﷺ والتسرية عنه فما أشد تعنّت أتباعه عليه السّلام على المصطفى ﷺ .

١٠- إذا كان ذكر عيسى عليه السّلام يراد به ضمناً تسلية المصطفى ﷺ ، فإنّ ذكر أيّوب عليه السّلام الّذى يُضْرب به المثل فى الصبر مؤكد لهذه التّسلية والتّسرية عنه عليه الصّلاة والسّلام . وقد قال عز من قائل عن أيوب عليه السّلام فى سورة ص [١] : ﴿إنّا وجدناه صابراً نعم العبد إنّه أوّاب﴾ .

١١- ذكر السّياق بعد ذلك يونس عليه السّلام . والمعروف أنّ قوم يونس عليه السّلام هم الوحيدون الّذين رفع اللّه سبحانه وتعالى عنهم العذاب من بين الأمم السّابقة الّتى أصرّت على تكذيبها فجرت عليها سنّة اللّه تعالى بأخذ المكذبين بالعذاب بعد إصرارهم على التّكذيب وقد تحقّقت المعجزات الّتى اقترحوا . جاء فى سورة يونس[٢] قوله تعالى ﴿إن الّذين حقّت عليهم كلمة ربّك لا يؤمنون .

---

(١) الآية ٤٤ .

(٢) الآيات ٩٦ - ٩٨ .

ولو جاءتهم كلّ آية حتّى يروا العذاب الأليم . فلولا كانت قريةٌ آمنت فنفعها إيمانها إلاّ قوم يونُس لمّا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدّنيا ومتّعناهم إلى حين﴾ ويصحّ أن يفهم من ذكر يونس عليه السّلام التّنبيه إلى سنّة اللّه تعالى أخذ الظّالمين إذا أصرّوا على التّكذيب بعد تحقّق الآيات المقترحة وإلى عدم الاستجابة فى حقّ المصطفى ﷺ إلى أىّ اقتراح بالآيات أو المعجزات، لأنّه سبق إلى علمه جلّ وعلا أنّ المقترحين لن يؤمنوا بعد تحقّق المعجزات التى اقترحوا، ولأن اللّه سبحانه وتعالى لم يشأ استئصال المقترحين المكذّبين مثل كفّار مكّة ويهود المدينة . وقد اقترح الأخيرون فى القسم السّابق أن يُنْزل النبى ﷺ عليهم كتاباً من السّماء غير القرآن الكريم جملةً واحدةً ومكتوبا . وإلى عدم تلبية اقتراح كفّار مكّة وكون معجزة القرآن الكريم فيها الغناء أشار قوله تعالى فى سورة الحجر[1] : ﴿وقالوا يا أيّها الّذى نُزّل عليه الذّكر إنّك لمجنون لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصّادقين. ما ننزّل الملائكة إلاّ بالحقّ وما كانوا إذاً مُنْظَرين . إنّا نحن نزلنا الذّكر وإنّا له لحافظون﴾ .

١٢ - ذكر السّياق بعد ذلك هارون عليه السّلام . والمعروف أنّ موسى وهارون عليهما السّلام أخوان وصنوان ، وأنّ ربّ العزّة جعل هارون عليه السّلام نبياً إكراماً لموسى عليه السّلام ورحمة به عليه الصّلاة والسّلام، وقد أمره ربّه جلّ وعلا بأن يذهب إلى فرعون مصر الطّاغية كى يدعوه إلى اللّه تعالى فسأل اللّه تعالى أن يجعل له من هارون أخيه وزيراً له يحمل معه أوزار الدّعوة ومشقّاتها وتبعاتها . جاء فى سورة مريم [2] القول: ﴿واذكر فى الكتاب موسى إنّه كان

(١) الآيات ٦-٩ .

(٢) الآيات ٥١ - ٥٣ .

مُخْلَصاً وكان رسولا نبيًا . وناديناه من جانب الطّور الأيمن وقرّبناه نجيًا . ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيًا ﴾ ، وجاء فى سورة طه[١] القول ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى . قال رب اشرح لى صدرى . ويسّر لى أمرى . واحلل عقدةً من لسانى يفقهوا قولى . واجعل لى وزيراً من أهلى . هارونَ أخى . اشدد به أزرى . وأشركه فى أمرى . كى نسبحك كثيراً . ونذكرك كثيراً . إنّك كنت بنا بصيراً. قال قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ وستتحدثّ الآية الكريمة التّالية عن موسى عليه السّلام .

١٣ - جمع السّياق بين سليمان وأبيه داود عليهما السّلام وذلك فى القول : ﴿وعيسى وأيّوب ويونس وهارون وسليمان. وآتينا داود زبوا ﴾ لقد أكرم الله تعالى كلاً من داود وابنه سليمان عليهما السلام بالنّبوّة، وخصّ سليمان عليه السّلام بالمزيد من الحكمة، وخصّ داود عليه السّلام بالزّبور. والزّبور واحدٌ من الكتب السّماويّة الأربعة الّتى جاء ذكرها فى القرآن الكريم وهى صحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى عليهم السّلام . وما أكثر فضل اللّه تعالى على هذين النّبيّين الكريمين وما أعظم شكرهما للّه تعالى على هذا الفضل وما أكثر الآيات الكريمات التى أشارت إلى ذلك ومنها قوله تعالى فى سورة النّمل[٢] : ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الّذى فضّلنا على كثيرٍ من عباده المؤمنين ﴾ وقوله تعالى فى سورة سبأ [٣] : ﴿ولقد آتينا داود منّا فضلاً يا جبال أوّبى معه والطّير وألنّا له الحديد . أن اعْمل سابغات وقدر فى السَّرْد واعملوا صالحاً

(١) الآيات ٢٤ - ٣٦ .

(٢) الآية ١٥ .

(٣) الآيات ١٠ - ١٣ .

إنّى بما تعملون بصير . ولسليمان الرّيحَ غدوّها شهرٌ ورواحُها شهرٌ وأسلنا له عين القطر . ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربّه . ومن يزغْ منهم عن أمرنا نُذقْه من عذاب السّعير . يعملون له ما يشاء من محاريبَ وتماثيل وجفان كالجواب وقدورٍ راسيات اعملوا آل داودَ شكراً . وقليلٌ من عبادى الشكور﴾ .

وحينما تكون البشريّة لا تكاد تعلم عن صحف إبراهيم وزبور داود عليهما السّلام إلاّ الاسم، وتعلم التّحريف الشّنيع الّذى تعرّض له كل من التّوراة والإنجيل، يبدو جلياً فضل اللّه تعالى العظيم على المصطفى ﷺ الذى أوحى اللّه تعالى إليه بالقرآن الكريم الّذى تكفّل اللّه تعالى بحفظه إلى يوم الدّين، ويتأكد تعنّت كفّار ويهود المدينة حينما يسألون المصطفى ﷺ أن يأتيهم بغير هذا القرآن الكريم أو أن يبدّله . وسيتحدث السّياق عن القرآن الكريم .

وليس بخاف ظاهر تلاؤم الأصوات فى الآية الكريمة الّتى تأخذ بمجامع الألباب رغم أنّها تذكر أسماء عدد من النّبيّين المصطفَيْن الأخيار . قال تعالى : ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنّبيّين من بعده . وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان . وآتينا داود زبوراً ﴾ .

وإنه بالنّظر إلى الأسماء المذكورة فى الآية الكريمة يتبيّن أنّ اسماً واحداً من بينها هو الذّى يحتاج إلى ذكر قرينه ، خاصّةً بعد أن ذكر سليمان وداود عليهما السّلام فى نسق وذُكر من قبل إبراهيم عليه السّلام وآله فى نسق، أمّا هذا الاسم الواحد الّذى هو بحاجة إلى ذكر قرينه فإنّه هارون عليه السّلام، وأمّا قرينه فأخوه وابن أمّه وشقيقه موسى عليه السّلام . وقد قامت الآية الكريمة التّالية بهذا الذّكر . قال

تعالى : ﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك . وكلّم الله موسى تكليما ﴾ .

ومن البيّن أن أصل الكلام ﴿وآتينا داود زبورا . وكلّم اللّه موسى تكليما﴾ وأنّ ما بين الكلامين معترضٌ وأنّ مكانه يصحّ أن يكون متأخّراً ولكن مجيء الآية الكريمة فى هذه الصّورة جعل صدرها المعترض يتمشّى مع صدر الآية الكريمة السّابقة الّذى يميل إلى الطّول، وأظهر جمال التّذييلين صوتياً ومعنوياً لأنّ كلاً من الرّسولين الكريمين قد اصطفاه الله تعالى بكتابٍ سماوىّ : ﴿ وآتينا داود زبورا ﴾ ﴿ وكلّم الله موسى تكليما ﴾ .

وحينما ننظر إلى صدر الآية الكريمة نتبيّن أنّه يتحدّث عن الرّسل الّذين قصّهم اللّه تعالى على رسوله الكريم فى القرآن الكريم فى غير هذا الموضع ، وعن الرّسل الّذين لم يقصّهم اللّه تعالى أصلاً فى القرآن الكريم ."وهذه تسمية الأنبياء الّذين نصّ اللّه على أسمائهم فى القرآن وهم آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيّوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليَسَع وزكريّا ويحيى وعيسى وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسّرين ، وسيّدهم محمّد ﷺ»(١) .

وحينما ننظر إلى التذييل : «وكلّم اللّه موسى تكليما» ونقارن بينه وبين التّذييل فى الآية الكريمة السابقة : «وآتينا داود زبورا» نتبيّن أنّ كلاً من التّذييلين يشير إلى شىء امتنّ اللّه تعالى به على كلّ من الرّسولين فوق نعمة النّبوّة . وهذه المنّة فى حقّ داود عليه السّلام الزّبور، وإنها فى حقّ موسى عليه السّلام الكلام . وحينما نعلم أنّ هنالك للّه تعالى منّةً كبرى على موسى عليه السّلام وهى إيتاؤه التّوراة

(١) تفسير ابن كثير ١/٥٨٥ .

وبذلك تكون التّوراة فى مقابل الزّبور، ويكون الكلام زيادة اختصاص، نستطيع بناءً على هذه الزيادة فى المنّة والفضل أن نفهم من النّصّ على الزبور فى القول : ﴿ وآتينا داود زبورا ﴾ أنه بمثابة التّنويه بنعمة إيتاء اللّه موسى عليه السلام التّوراة، وهو الّذى سيأتى ذكره فى ختام الآية الكريمة، كما نستطيع أن نفهم أنّ فى تجاوز ذكر التّوراة إلى ذكر الكلام تطوراً فى عرض المعانى ابتدأ بالإشارة إلى نعمة إيتاء اللّه تعالى كلاً من النّبيّين الكريمين كتاباً سماوياً، وقد قام التّذييل الأوّل بهذا الدور : ﴿ وآتينا داود زبورا ﴾ بينما قام التّذييل الآخر ﴿ وكلّم الله موسى تكليما ﴾ بهذا التّطور ، فها نحن أولاء أمام نعمة اختصّ الله تعالى بها موسى عليه السّلام كليم اللّه تعالى فقد كلّمه ربّه جلّ وعلا من وراء حجاب بلا واسطة مشافهة (١) .

وإن هؤلاء الرّسل الّذين قصّ اللّه تعالى ذكرهم فى القرآن الكريم والّذين لم يقصص قد بعثهم اللّه تعالى العزيز الحكيم مبشرين ومنذرين وإلى ذلك أشارت .

الآية رقم (١٦٥)

قال تعالى :

رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ
لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا

إن لفظ «رسلا» الّذى ابتدأت به الآية الكريمة بَدَلٌ من اللّفظ ذاته فى الآية الكريمة السّابقة . إنّ ربّ العزّة أرسل الرّسل مبشرين المؤمنين

(٢) انظر تفسير الطّبرىّ ٦/٢١ والجلالين .

بالجنّة والنّعيم المقيم ، ومنذرين الكافرين بالنار والعذاب الأليم .

وإن أهمّ ما يلفت الانتباه بشأن الحكمة من إرسال الرّسل مبشّرين ومنذرين تقديم العزيز الحكيم فى الذّكر النّاس وذلك فى القول : ﴿لئلا يكون للنّاس على الله حجةٌ بعد الرّسل﴾ لقد كان فى الإمكان أن يتأخّر النّاس فى الذّكر فيكون القول فى هذه الصّورة مثلاً : لئلا يكون على الله للنّاس حجّةٌ بعد الرّسل . ولكن العزيز الحكيم الفعّال لما يريد الّذى لا يظلم مثقال ذرّة هو الذى يقدّم فى الذّكر النّاس كلّ النّاس فى القول : ﴿ لئلا يكون للنّاس على الله حجّةٌ بعد الرسل﴾ ما أعظم فضله جلّ وعلا على النّاس ، وما أرحمه بعباده وما أشدّ جحود النّاس للنّعم وكنودهم للآلى . والمعنى : لئلا يكون للنّاس الكافرين على الله تعالى حجةٌ بعد إرسال الرسل. ولا يخفى الأنسياب المعنوىّ والصّوتّى فى الجزئية الكريمة ، وهكذا يتجلّى جلال المعنى وجمال المبنى .

وإن تقديم الآية الكريمة النّاس فى الذّكر خير مرشّح لمجىء التّذييل : ﴿وكان الله عزيزاً حكيما﴾ إن الله سبحانه وتعالى هو دائماً وأبداً العزيز فى ملكه الحكيم فى صنعه ، ومن مظاهر عزّته أن يعطى النّاس حقّهم كاملاً غير منقوص بما فى ذلك تقديمهم فى الذّكر فى الجزئية الكريمة ، ومن مظاهر حكمته إرسال الرّسل مبشّرين المؤمنين المتّقين بالجنّة ومنذرين الكافرين بالنّار فلا ظلم لهؤلاء وهؤلاء بحذف حسنة أو إضافة سيئة .

ثبت فى الصّحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحبّ إليه المدح من الله عزّ وجلّ ، مِن أجل ذلك مدح نفسه ، ولا أحد أحبّ إليه الغدر من الله ، من أجل ذلك بعث النبيين مبشّرين ومنذرين(١) .

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٥٨٨ .

ولما كان محور حديث الآيات السابقات الإيحاء بالرّسالة، وكان ثمّة ذكرٌ لبعض المزيد من فضل الله تعالى على بعض هؤلاء المصطفين الأخيار وراء الإيحاء بالرّسالة، فداود عليه السّلام آتاه الله تعالى زبوراً، وموسى عليه السّلام كلمّه الله تعالى تكليماً، ولمّا كانت معجزة المصطفى ﷺ الكبرى الخالدة هى القرآن الكريم فقد تحدّثت الآية الكريمة التّالية عن القرآن الكريم معجزة المصطفى ﷺ الكبرى الخالدة من الزّاوية الّتى تعتبر محور الآيات الكريمات وهو الإيحاء أو الإيتاء فإلى

الآية رقم (١٦٦)

قال تعالى :

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ (١٦٦)

سبب النزول :

عن ابن عباس قال : دخل على رسول الله ﷺ جماعةٌ من يهود فقال لهم : إنىّ والله أعلَمُ أنكم لتعلمون أنّى رسول الله ، فقالوا : ما نعلم ذلك . فأنزَل الله : ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا ﴾(١) وقال الكلبىّ : إن رؤساء أهل مكة أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : سألنا عنك اليهود فزعموا أنّهم لا يعرفونك ، فأتنا بمن يشهد لك أنّ الله بعثك إلينا رسولا . فنزلت هذه الآية (٢) .

إذا كان كفّار مكّة ومن شاكلهم ويهود المدينة ومن لفّ لفّهم لا

(١) تفسير الطّبرىّ ٦/٢٢ وتفسير ابن كثير ١/٥٨٩ .

(٢) أسباب النّزول للواحدى ٢١٧ .

يؤمنون بأن القرآن الكريم كلام ربّ العالمين نزل به الرّوح الأمين جبريل عليه السّلام على قلب المصطفى ﷺ ليكون من المنذرين به والمبشّرين، فإنّ هذا الموقف من الكافرين ومن شاكلهم لا قيمة له ولا وزن ، وها هى ذى الآية الكريمة تبدأ بالقول : «لكن» الّذى يفيد الاستدراك، والمعنى أنّ الّذى عليه كلّ الاعتماد هو شهادة اللّه تعالى الّذى أنزل عليك القرآن الكريم بأنّه جلّ وعلا هو الّذى أنزله إليك وبأنّه كلامه جلّ وعلا . إنّه جل وعلا أنزل إليك هذا القرآن الكريم بعلمه جلّ المحيط بكلّ شىء، ومن ذلك علمه جلّ وعلا بالّذى يختصّه بشرف إنزال الكتاب العزيز عليه، واصطفائه خاتماً للنّبيّين، ومن ذلك كذلك نزول هذا القرآن الكريم متضمنا ما شاء اللّه تعالى أن يتضمّن من علم اللّه تعالى الّذى لو كان البحر مداداً لكلماته جلّ وعلا ومن وراء البحر سبعة أبحر ما نفدت كلماته جلّ وعلا .

وكما يشهد اللّه تعالى الّذى أنزل الكتاب العزيز بعلمه جلّ وعلا يشهد الملائكة الأطهار بأنّ القرآن الكريم مُوحًى به من ربّ العالمين . ومن البيّن أنّ شهادة الملائكة جاءت فى موضعها من الآية الكريمة حيث لا مكان وراء هذا التّأخير .

ولمّا كانت شهادة اللّه تعالى تغنى عن كلّ شهادة بما فى ذلك شهادة الملائكة الأطهار، إنّما هو فضل اللّه تعالى الّذى يؤتيه من يشاء، وقد آتاه جلّ وعلا الملائكة ، فإنّ الآية الكريمة تقرّر فى القول: ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ أنّ شهادة الله تعالى بأنّ القرآن الكريم موحى به إلى الرّسول الكريم تكفى وتغنى عن كلّ شهادة، وأصل الكلام: وكفى اللّه شهيداً. فلفظ الجلالة مجرورٌ لفظاً مرفوعٌ محلاً فاعل كفى[1] .

---

(١) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٣/٢٠٨ .

والعجيب فى أمر الكافرين أنّ ربّ العزّة يشهد بأنّ القرآن الكريم كلامه جلّ وعلا نزل به الرّوح الأمين على بشر من المرسلين كريم ويشهد الملائكة ويشهد كذلك أولو العلم، فى حين يصرّ الكافرون على كفرهم وعلى صدّهم عن سبيل اللّه تعالى . وقد أشارت الآيات الكريمات الثّلاث التّاليات إلى الكافرين وعذابهم وهذه هى .

الآيات رقم (١٦٧ - ١٦٩)

قال تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾

تتحدّث الآية الكريمة الأولى عن الّذين تجاوزوا الكفر إلى صدّ الآخرين عن الدّخول فى دين الإسلام والبقاء على الكفر أو الارتداد عن الإسلام، وتقرّر أنّ الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل اللّه تعالى قد ضلّوا ضلالاً بعيداً بسبب صدّهم عن سبيل اللّه تعالى . وكأنّ ضلالهم وابتعادهم عن الصّراط المستقيم بسبب كفرهم وكأنّ ضلالهم البعيد، وانحرافهم عن الصّراط المستقيم الأكيد، بسبب صدّهم الآخرين عن سواء السّبيل وصراط اللّه تعالى المستقيم .

وإذا كانت الآية الكريمة تتحدّث عن نوعين من الضّلالة، الكفر والصّدّ عن سبيل اللّه والعذاب بسببهما، فإن الآية الكريمة التّالية تتحدّث عن نوع ثالث من الضّلالة وعن عذاب صاحبه. قال تعالى : ﴿إنّ الّذين كفروا وظلموا لم يكن اللّه ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا﴾ وإنّ الآية الكريمة تذكّرنا بالآية الكريمة السّابعة والثّلاثين بعد المائة من هذه السّورة الكريمة . قال تعالى : ﴿إنّ الّذين آمنوا ثمّ كفروا ثمّ آمنوا

ثمّ كفروا ثمّ ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا ﴾ والآية الكريمة تتحدّث عن الّذين ارتدّوا والعياذ بالله وازدادوا كفراً وظلّوا كذلك حتّى توفاهم الله تعالى . إنّ الآية الكريمة يجيء فيها القول : ﴿ لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا ﴾ ومن البيّن كذلك أنّ الشّبه الكبير بين الخاتمتين فى الآيتين الكريمتين، ومن البيّن كذلك أنّ القول فى الموضعين : «لم يكن الله ليغفر لهم» يتعلّق بالذّنوب الّتى ارتكب القوم ويرتكبون . وأنّ القول : ﴿ ولا ليهديهم طريقا ﴾ والقول : ﴿ ولا ليهديهم سبيلا ﴾ يتعلّق كلّ منهما بمستقبل الفريقين . إنّ جزاء كلّ من الفريقين الّذين ضلّوا ضلالاً بعيداً والّذين اختاروا العمى على الهدى أن يزيدهم الله تعالى ضلالاً إلى ضلالهم وعمى بصيرة إلى عماهم فلا يهتدون سبيلا، ولا يجدون طريقا . وبهذا يتبيّن أنّ كلاً من الآيتين الكريمتين تتحدّث عن الكافرين الضالّين المضلّين إلى أن توفّاهم الله تعالى قبل أن يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً .

والذى يلفت النظر هنا أنّ الآية الكريمة تستعمل لفظة «طريقا» بينما تستعمل الآية الكريمة هنالك لفظة «سبيلا» وأنّ الآية التالية هنا تستعمل هى الأخرى لفظة طريقا . قال تعالى : ﴿إنّ الّذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا . إلاّ طريق جهنّم خالدين فيها أبدا . وكان ذلك على الله يسيرا ﴾ والمعنى أنّ أولئك الّذين ماتوا كافرين لم يكن الله جل وعلا ليغفر لهم ذنوبهم ولا ليهديهم إلى الخيرات طريقاً إلاّ طريق جهنّم والعياذ بالله الّتى سوف يخلدون فيها أبداً، وكان ذلك على الله سبحانه وتعالى يسيراً لأنّه جلّ وعلا القادر على كلّ شىء .

فما الحكمة من استعمال سبيل مرّة وطريق أخرى ؟ حينما ننظر إلى القول فى الآية الكريمة السّابعة والثّلاثين بعد المائة : «ولا ليهديهم سبيلا» وإلى القول فى الآية الثالثة والأربعين بعد المائة : «ومن يضلل

اللّه فلن تجد له سبيلا» نجد الحديث يقف عند هذا السّبيل ولا يتعدّاه لأنّ المراد به السبيل الموصل إلى الجنّة بخاصّة، ومن سمات السّبيل أنّه طريق فيه سهولة، ومن هنا عُبر به عن المحجّة. قال تعالى(١) : ﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى اللّه . على بصيرة أنا ومن اتّبعنى وسبحان اللّه وما أنا من المشركين ﴾ . وقال تعالى(٢) : ﴿ يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السّلام ويخرجهم من الظّلمات إلى النّور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾(٣) وهكذا يتبيّن أنّ من سمات السّبل السّهولة واليسر واللّين، وتلك هى سمات سبيل الهداية .

فإذا تحوّلنا إلى لفظة «طريق » فى الآيتين الكريمتين استطعنا أن نفهم أنّ لفظة الطّريق الأولى تعنى السّبيل وتؤدّى معناه، لأنّ المراد فى الموضعين نفى كلٍّ من السّبيل والطّريق الّذى يؤدى كلٌّ منهما إلى الجنّة بإذن اللّه تعالى . فإذا تحولنا إلى لفظة طريق الأخرى نجدها مؤدّيةً إلى النّار هذه المرّة والعياذ باللّه : «إلاّ طريق جهنّم» وكأنّ لفظة طريق الأولى تشير إلى المرحلة المعنوية الّتى ارتقى إليها لفظ طريق حتّى أصبح يفيد معنى لفظة سبيل، وكأنّ لفظة طريق الأخرى المؤدّية إلى جهنّم والعياذ باللّه تشير إلى المرحلة الأولى الحسّيّة الّتى يقال معها فى تعريف الطريق إنّه السبيل الّذى يُطْرَق بالأرجل أى يُضْرَب ، ومن هنا كان الطَّرْق بمعنى الضَّرْب فى الأرض إلاّ أنّه أخصّ لأنه ضرب توقّع كطرق الحديد بالمطرقة، ويتوسع فيه توسّعهم فى الضّرب(٤) وكأن الكافرين يعرفون أنّهم سيطرقون هذا النّوع من الطّريق المؤدّى إلى جهنّم . بل إنّ الأمر لا يقف عند هذا الحدّ فقد ارتبط بالطّرق سلوك الطّريق ليلاً . فالطارق السّالك للطّريق، لكن خُصّ فى التّعارف

(١) سورة يوسف ١٠٨ .

(٢) سورة المائدة ١٦ .

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى «سبل» ٢٢٣ .

(٤) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى «طرق» ٣٠٣ .

بالآتى ليلاً فقيل : طرق أهله طروقاً، وعُبّر عن النّجم بالطّارق لاختصاص ظهوره باللّيل ، قال : والسماء والطّارق ، وعن الحوادث الّتى تأتى ليلاً بالطّوارق(١) .

وهكذا يتبين أن الكافرين الّذين ماتوا قبل أن يتوبوا إلى اللّه تعالى توبةً نصوحاً لن يهديهم اللّه تعالى سبيلاً ولا طريقاً، إنّه جلّ وعلا لن يهديهم - استهزاءً بهم واستخفافا - إلاّ طريق جهنّم الوعر الّذى تحفّ به المخاطر، والّذى تلفّه ظلماتٌ بعضها فوق بعض . ومن البيّن أنّ استعمال الهداية ضمناً فى الآية الكريمة الأخيرة : «إلاّ طريق جهنّم» من قبيل توبيخهم والاستهزاء والسّخرية بهم. إن القول هنا : ﴿إنّ الذين كفروا وظلموا لم يكن اللّه ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا. إلا طريق جهنّم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيرا ﴾ من جنس التّبكيت والتقريع فى قوله تعالى فى سورة الدّخان(٢) : ﴿ذق إنّك أنت العزيز الكريم ﴾ . وإنّ لفظى السّبيل والطّريق بالمعنى الّذى بيّنا يذكراننا بحكمة اللّه تعالى الّذى شاء أن يكون كسب الحسنات سهلاً ميسورا ولهذا تستعمل معه أساساً جملة «كسب» ، وأن يكون اكتساب السّيّئات بعسرٍ ومشقّة، ويكفى المذنب الألم النّفسى الّذى يعصره ويؤرّق عينيه ويُقضّ عليه مَضْجَعَه، ولهذا تستعمل معه أساسًا جملة «اكتسب» واللّه تعالى أعلم .

ولمّا كانت رسالة المصطفى ﷺ عالميّة منذ فجرها، وكان من بين الكافرين والمرتدّين من يصرّ على كفره وظلمه، فقد خاطبت الآية الكريمة التّالية كلّ النّاس ودعتهم إلى الإيمان بالرّسول ﷺ وبمعجزته الكبرى الخالدة فإلى

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى «طرق» ٣٠٣ .

(٢) الآية : ٤٩ .

الآية رقم (١٧٠)

قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ
ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟
فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

تنادى الآية الكريمة كلّ النّاس دليلاً على أنّ رسالة الإسلام عالميّة . وإنّ خطاب النّاس هنا وفى آية كريمة لاحقة هى الآية الكريمة الرّابعة والسّبعون بعد المائة يذكّرنا بخطاب النّاس فى أولى آيات السّورة الكريمة . وكلّ هذه النّداءات للنّاس من الأدلّة على أنّ خطاب النّاس يصّح أن يجىء فى المدنيّ من القرآن الكريم . وتستعمل الآية الكريمة جملة جاء فى القول : ﴿يا أيّها النّاس قد جاءكم الرّسول بالحقّ من ربّكم ﴾ والمعروف أنّ جملة جاء لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على القرب والوصول الفعلى، وبالتّالى فإنّ مجيئها هنا قوّةٌ لقوله تعالى فى هذا القسم : ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للنّاس على الله حجّةٌ بعد الرّسل وكان الله عزيزاً حكيما ﴾ وانظر إلى لفظ الرّبّ فى القول خطاباً للنّاس : «من ربّكم» والمعروف أنّ لفظ الرّبّ يجىء فى القرآن الكريم حينما يكون الجوّ مشحوناً بالودّ والعطف والحنان، وحينما يراد التّنبيه إلى وجوب القيام بالشّكر لله تعالى على نعمه وآلائه . إنّ من مظاهر حبّ اللّه تعالى لعباده ورحمته بهم أن يجيئهم الرّسول محمّد ﷺ بالحقّ، وهو القرآن الكريم، من ربّهم جلّ وعلا، فعليهم أن يؤمنوا بالرّسول الكريم وبالقرآن العظيم فإنّ الإيمان خيرٌ لهم : ﴿ فآمنوا خيراً لكم ﴾ «خيرا» مفعول مطلق نائب عن المصدر

فهو صفته، أى آمنوا إيماناً خيراً لكم»[١] أو آمنوا يكن خيراً لكم [٢] فإن أصرّ النّاس على الكفر فليعلموا أنّ للّه سبحانه وتعالى ما فى السّماوات وما فى الأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً، فاللّه سبحانه وتعالى هو الغنيّ ونحن الفقراء، وكان اللّه سبحانه وتعالى هو العليم الّذى لا يخفى عليه شىء، ومن ذلك حقيقة إيمان من أعلن الإيمان وحقيقة الرّاغب فى الإيمان الّذى يهديه اللّه تعالى سبله جلّ وعلا، وهو الحكيم فى صنعه وتدبيره وقضائه وكلّ أقواله جلّ وعلا وأفعاله لا ربّ غيره ولا معبود سواه .

(١) انظر الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٣/٢١١ ومعانى القرآن للفرّاء ١/٢٩٥ .
(٢) تفسير ابن كثير ١/٥٨٩ وتفسير الطّبرى ٦/٢٤ .

(٢١)

« يا أهل الكتاب قولوا على الله الحق ويا أيّها
الناس آمنوا بالله والرّسول والقرآن »
الآيات (١٧١ ـ ١٧٥)

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ
عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ
ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ
وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ
ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ
وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ
إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا
يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ
قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ
فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾

لما كانت رسالة المصطفى ﷺ عالمية، وقد تبيّنّا أنّ آخر آيات القسم السابق نادت كلّ النّاس ودعتهم إلى اتّباع محمّد بن عبد اللّه ﷺ ، فقد كان هذا القسم التّالى شركةً بين فريقٍ من هؤلاء النّاس وهم النّصارى لأهمّيّتهم، وبين النّاس أجمعين حينما تنادى إحدى الآيات كلّ النّاس مرّة أخرى وتدعوهم إلى اتّباع محمّد بن عبد اللّه ﷺ . وقد لفت نظرنا بشأن آيات القسم جمال التقّسيم معنوياً وصوتياً. إنّ الآية الكريمة الأولى التى تنادى أهل الكتاب تنهاهم عن الغلوّ فى دينهم وعن قول غير الحقّ على اللّه تعالى . وإنّ هذين المعنيين يبيّنهما بقيّة الآية الكريمة على التّوالى إضافةً إلى البناء الدّاخلي البديع معنوياً وصوتياً . إنّ القول عن عيسى عليه السّلام : ﴿إنّما المسيح عيسى ابن مريم﴾ الّذى يتألّف من ثلاثة معان وثلاث وحدات صوتيّة يترتّب عليه قولٌ يتألّف هو الآخر من ثلاثة معان، كلّ معنى يُبنى على ما يقابله، ومن ثلاث وحدات صوتيّة كذلك : ﴿رسول اللّه وكلمته ألقاها إلى مريم، وروحٌ منه﴾ وإن الجزئيّات الثّلاث التّالية تتألّف كلٌّ من ثلاث وحدات صوتيّة : ﴿فآمنوا باللّه ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ﴾ وانظر إلى التّجانس المعنوىّ والصّوتىّ فى هذا الشّقّ الّذى يبيّن القول غير الحقّ من قبل النّصارى فى حق الذّات العليّة : ﴿إنّما اللّه إلهٌ واحدٌ، سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السماوات وما فى الأرض ﴾ ثمّ إنّ التّذييل يتألّف من ثلاث وحدات صوتية ﴿ وكفى بالله وكيلا ﴾ .

وتحوّل السّياق بعد ذلك إلى عيسى عليه السلام الّذى لا يستنكف أن يكون عبداً للّه تعالى كما لا يستنكف الملائكة المقرّبون فلماذا يستنكف الغالون فى عيسى أن يكون عليه السّلام عبداً للّه تعالى . ويقرّر السّياق أنّ المستنكفين والمستكبرين سيحشرهم اللّه تعالى إليه يوم القيامة جميعاً. ثمّ يغلب على السّياق ثنائيّة المعانى . فهناك حديث

عن المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات وعن المستنكفين وعن المستكبرين. وبشأن الثّواب هنالك توفية الأجور وزيادة الفضل. وبشأن العقاب هنالك العذاب الأليم وعدم وجود الولي والنّصير. وبشأن خطاب النّاس ودعوتهم إلى الدّخول فى دين الإسلام هنالك الحديث عن البرهان الّذى جاء من ربّ الأنام، وهذا البرهان العظيم والحجة البالغة هو محمّد بن عبد اللّه، وهنالك النّور المبين وهو القرآن الكريم والصّراط المستقيم.

وعلى غرار الحديث السابق عن ثواب المؤمنين يجيء الحديث عن ثواب المؤمنين المتوكلين على اللّه تعالى مع زيادة الحديث عن رحمة اللّه تعالى الواسعة وهدايته الّذين يجاهدون فى سبيله تعالى إلى الصراط المستقيم وزيادتهم هدى إلى هداهم.

وبما أنّ عذاب الكافرين معروفٌ وقد نصّ عليه السياق الّذى يتّصف بثنائية المعانى من قبل فإنّ السّياق اكتفى هذه المرّة بذكر الثواب عن ذكر العقاب مظهراً من مظاهر رحمة اللّه تعالى الّتى تسبق غضبه، ومغفرته الّتى تسبق عذابه، لا معبود غيره ولا ربّ سواه جلّ وعلا.

الآية رقم (١٧١)

قال تعالى:

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾

إذا كانت الآية الكريمة الثّالثة والخمسون بعد المائة من هذه السّورة الكريمة قد أشارت إلى بنى إسرائيل بأنّهم أهل الكتاب وذلك فى القول : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزّل عليهم كتاباً من السّماء ﴾ فإنّ هذه الآية الكريمة تشير إلى النصارى أتباع عيسى عليه السلام بأنّهم أهل الكتاب ، وذلك فى ندائهم بالقول : ﴿يأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحقّ ﴾ ومن البيّن أنّ هذا القول يتألف من معنيين اثنين أحدهما فى القول : ﴿لا تغلوا فى دينكم ﴾ والغلوّ فى كلّ شىء مجاوزة حدّه الّذى هو حدّه . يقال منه فى الّدين : قد غلا فهو يغلو غلوّاً [١] وكذلك إذا كان فى القدْر والمنزلة . فإذاكان فى السّعر غلاء[٢] والمعنى: يا أيّها النصارى ، يا من أكرم اللّه تعالى رسوله إليكم عيسى عليه السلام بالكتاب السّماوىّ وهو الإنجيل لا تغلوا فى دينكم ولا تتجاوزوا الحدّ فى إطراء المسيح عيسى ابن مريم . والمعنى الآخر فى القول : ﴿ولا تقولوا على اللّه إلا الحقّ ﴾ والمعنى : يا أهل الكتاب لا تقولوا على الله تعالى إلاّ الحقّ وليس الكذب، فلا تقولوا عن عيسى إنّه ابن اللّه : ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا ﴾ بل قولوا إنّ عبد الله ورسوله ﴿بديع السّماوات والأرض أنى يكون له ولدٌ ولم تكن له صاحبةٌ وخلق كلّ شىءٍ وهو بكل شىء عليم ﴾[٣] .

وحينما نتأمل بقيّة الآية الكريمة نستطيع أن نتبيّن أنّها تبين لهذين المعنيين الاثنين فى القول : ﴿لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على اللّه إلاّ الحقّ﴾ ونستطيع أن نذهب إلى أنّ المعنى الأوّل : ﴿لا

(١) تفسير الطبرىّ ٦/ ٢٤ .

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانىّ «غلا» ٣٦٤ .

(٣) سورة الأنعام ١٠١ .

تغلوا فى دينكم ﴾ يبيّنه هذا القول الأوّل من بقيّة الآية الكريمة : ﴿ إنّما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثةٌ انتهوا خيراً لكم ﴾ وأن نذهب إلى أن المعنى الآخر : ﴿ ولا تقولوا على الله إلاّ الحقّ ﴾ يبيّنه هذا القول الأخير من الآية الكريمة وفيه التذييل : ﴿إنّما الله إلهٌ واحدٌ سبحانه أن يكون له ولد . له ما فى السّماوات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا ﴾ ولا يعنى هذا التقسيم عدم التّداخل بين هذه الأجزاء ، فمن البيّن أنّها متداخلة ومتكاملة، ومن البيّن كذلك أنّها واضحة المعانى والمعالم على النّحو الّذى بيّنّا .

فإذا تأمّلنا القول المتعلّق بنهى أهل الكتاب عن الغلوّ فى دينهم تبيّنّا أنّ القول المتعلّق بالنّهى عن الغلو يبدأ بإنّما الّتى تفيد الحصر، فليس المسيح عيسى ابن مريم إلاّ رسول الله وكلمته الّتى ألقاها إلى مريم وروحاً منه تعالى . ويلاحظ أنّ الحديث عن ذات المسيح عليه السّلام يذكر صفته : «المسيح» واسمه : «عيسى» وحقيقته عليه السّلام: «ابن مريم» . والمسيح يعنى الممسوح من الذّنوب والأدناس والآثام (١) والمراد بالنّصّ على أنّه عليه السلام ابن مريم طرد ادّعاء النّصارى الغالين فى عيسى عليه السّلام الزّاعمين أنّه ابن الله : ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا﴾ وثمّة لطيفةٌ نودّ أن نشير إليها وهى أنّ عدد المرّات فى القرآن الكريم الّتى جاء فيها النّص على أنّ عيسى عليه السلام هو ابن مريم أكثر من عدد المرّات التى جاء فيها اسمه عليه السلام دون النّصّ على أنّه ابن مريم .

وإنّ أوّل ما لفت نظرنا فى الآية الكريمة المائلة إلى الطّول النّسبى ظاهرة تلاؤم الأصوات والتّرتيب العجيب لمفردات المعانى أو ظاهرة

---

(١) تفسير الطبرى ٦/٢٤ .

البناء والتّركيب لها . ونود أوّل الأمر أن نمرّ سريعاً على ما يلمحه المتأمّل للوهلة الأولى فى هذا الجانب .

انظر إلى الثلاثة المقاطع الصّوتيّة والثلاثة المعانى فى القول عن عيسى عليه السّلام : «المسيح عيسى ابن مريم» وانظر إلى الثّلاثة المقاطع الصّوتيّة التّالية والثّلاثة المعانى المترتّبة على الثّلاثة المعانى السّابقة على التوالى : «رسول اللّه ، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه» .

وانظر إلى المقاطع الصّوتية الثّلاثة فى الجزئيّات الثّلاث .

«فآمنوا باللّه ورسله» .

«ولا تقولوا ثلاثة» .

«انتهوا خيراً لكم» .

وسبق أن ألمحنا إلى أنّ هذه المعانى والمقاطع الصّوتيّة أو القوالب الصّوتيّة الّتى صُبّت فيها تعتبر تبييناً للقول : ﴿ لا تغلوا فى دينكم ﴾ فإذا تحوّلنا إلى ما يعتبر تبييناً للقول : ﴿ولا تقولوا على اللّه إلاّ الحق﴾ لفت انتباهنا أنّه هو الآخر يتألّف من ثلاث جزئيّات متقاربة عدد الوحدات الصوتيّة فيها إلى حد كبير . وهذه هى الجزئيّات الثّلاث .

«إنما اللّه إلهٌ واحد» .

«سبحانه أن يكون له ولد» .

«له ما فى السماوات وما فى الأرض »

واللّطيف فى الأمر أن التّذييل فى الآية الكريمة يتألف هو الآخر من ثلاث وحدات صوتيّة : « وكفى بالله وكيلا » .

ونودّ أن ننظر الآن إلى هذه المعانى الثلاثة المتعلّقة بعيسى عليه

السّلام والأمور المترتّبة عليها .

لقد قيل عن عيسى عليه السّلام إنّه : «المسيح» وهذا القول يقابله القول بعد ذلك : «رسول اللّه» .

وقيل عنه عليه السّلام إنّه : «عيسى» وهذا القول يقابله القول بعد ذلك : «وكلمته ألقاها إلى مريم» .

وقيل عنه عليه السلام إنّه : «ابن مريم» وهذا القول يقابله القول بعد ذلك : «وروحٌ منه» .

والمعنى أنّ المسيح عيسى ابن مريم هو رسول اللّه تعالى، وهو كلمة اللّه تعالى أوجده جلّ وعلا دون أب بكلمة كن فكان، فمثله عليه السّلام فى إيجاده من غير أب كمثل آدم عليه السّلام الّذى أوجده اللّه تعالى من غير أبوين وبكلمة كن فكان، وذلك معناه أنّ المسيح عيسى هو عبد اللّه تعالى، وهو ابن مريم، وهو روحٌ منه تعالى «ونفخةٌ منه لأنّه حدث عن نفخة جبريل عليه السّلام فى درع مريم بأمر اللّه إياه بذلك فنسب إلى أنّه روحٌ من اللّه لأنّه بأمره كان» (١) وأضيفت الرّوح إلى اللّه على وجه التّشريف كما أضيفت النّاقة والبيت إلى اللّه فى قوله : هذه ناقة اللّه، وفى قوله : ﴿وطهّر بيتى للطائفين﴾(٢) قال تعالى : ﴿ إنّما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه ﴾ ولا يخفى أنّ الهدف الأكبر المراد تحقيقه هو أنّ عيسى عليه السّلام عبد اللّه تعالى ورسوله وليس ابنه جلّ وعلا كما يزعم الغالون من النّصارى .

إنّ الغلوّ فى عيسى عليه السّلام اعتداءٌ على اللّه تعالى وعلى

(١) تفسير الطبرىّ ٦/٢٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/٥٩٠ .

مقام الألوهيّة، واعتداءٌ بعد ذلك على عيسى عليه السّلام برفعه فوق مرتبة العبوديّة الّتى كانت أوّل حقيقة جرت على لسانه عليه الصّلاة والسّلام حينما كان فى المهد، قال تعالى (١) : ﴿قال إنّى عبد اللّه آتانى الكتاب وجعلنى نبيّا . وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصّلاة والزّكاة ما دمت حيّا . وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جبّاراً شقيّا . والسّلام علىّ يوم وُلدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّاً ﴾ ولمّا كان الغلوّ فى عيسى عليه السّلام اعتداءً على اللّه تعالى بالزّعم أنّه ابن اللّه، واعتداءً على عيسى عليه السّلام الّذى اصطفاه اللّه تعالى بنعمة الرّسالة، فقد جاء الأمر للغالين من أتباعه عليه السّلام بالقول : «فآمنوا باللّه ورسله» والمعنى آمنوا باللّه تعالى وَحْدَهُ لا شريك له، وآمنوا برسله المصطفين الأخيار من عباده وفيهم عيسى عليه السلام. ولمّا كان الزّعم بأن عيسى عليه السّلام ابن اللّه تعالى يقتضى الزّعم بأنّه له جل وعلا صاحبة ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾ فقد جاء نهى الغالين عن ذلك الزّعم فى القول : «ولا تقولوا ثلاثة» أي لا تجعلوا عيسى وأمّه مع اللّه شريكين (٢) ولما كان الغالون مستمرّين فى زعمهم جاء الأمر بالانتهاء عن هذا القول الخطير فى القول : «انتهوا خيراً لكم» والمعنى : كفّوا عن القول يكن خيراً لكم(٣) .

ثمّ بيّنت الآية الكريمة الحقّ الذى أشار إليه صدرها وكان هذا التّبيين فى القول : ﴿إنّما اللّه إلهٌ واحد سبحانه أن يكون له ولد . له ما فى السّماوات وما فى الأرض ﴾ ومن البيّن ابتداء التّبيين على غرار

(١) سورة مريم ٣٠ ـ ٣٣.

(٢) تفسير ابن كثير ١/٥٩٠ وجاء فى تفسير الطّبرىّ ٦/٢٥ : «ومعنى الكلام : ولا تقولوا هم ثلاثة».

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٢/٥٩١ .